16

روايات عالمية للجيب



الغرفة الحمراء

بقلم: هـ . ج . ويلز

ترجمة وإعداد :

د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف

المجموعة التالية من القصص القصيرة ، هى مجموعة منتقاة من القصص الخيالية للأديب الإنجليزى العظيم (هربرت جورج ويلز)(*)

ومن الغريب أن شهرة الأعمال الخيالية لـ (ويلز) تفوق بكثير شهرة أعماله الواقعية .. من منا لم يسمع عن قصص (الرجل الخفى) أو (آلة الزمن) أو (جزيرة د . مورو) ؟ .. ولعل هذا يرجع إلى أن النوعية الأولى أكثر إمتاعًا وشعبية ..

على أن النقاد ـ ومنهم د . (لويس عوض) الذى نقتبس هنا بعض عباراته ـ يقسمون أدب (ويلز) إلى ثلاث مجموعات :

١ ـ الأساطير العلمية : على غرار ما ذكرناه ..

(*) (هـ . ج . ويلز) من الكتاب العالميين المعدودين الذين اشتهروا بالحروف الأولى من أسمائهم ، ومنهم د. (هـ . لورانس) ، و (ج . ب . شو) و (ر . ل . ستفنسون) و (ت . س . إليوت) .

٢ ـ القصص الواقعية : مثل (كيبس) و (تونو بنجى) و (سيرة مستر بولى) ، وهذه المجموعة هى الأرقى والأكثر ثراءً فى محتواها الأدبى .

٣ ـ القصص الجدلية : مثل (مستر برتلنج) و (آن فيرونيكا) وكلها خالية من المحتوى الأدبى ، بل هى أقرب إلى مناقشات للآراء الاجتماعية تبرز فيها طبيعة المفكر المصلح أكثر من طبيعة الفنان ..

ولما كان ما سنقدمه اليوم يندرج تحت المجموعة الأولى ، فإننا سنتجاهل عن عمد الحديث عن المجموعتين الأخريين ، وإن كنا نعد بتقديم أحد أعمال (ويلز) الواقعية قريبًا إن شاء الله ..

توجد سمة عامة فى منهج أساطير (ويلز) العلمية .. وهى أنه يجتهد لتصوّر مستقبل البشرية إذا ما وضع العلم فى خدمة المجتمع ..

وفى قصة (آلة الزمن) يبدو متأثرًا بشدة بمنهج (داروين) ونظرية النشوء والارتقاء .. وفى قصص أخرى يتصور مَصلاً تحقن به الحيوانات فتتكلم وتفكر كالآدميين ، أو محلولاً يشربه الناس فتشفّ أجسادهم حتى تغدو خفية .. أو حربًا بين كوكبنا وغيره من الكواكب .

ولقد جرت العادة على أن يوضع (ويلز) مع الفرنسى (جول فيرن) فى سلّة واحدة .. ويرى د . (لويس عوض) أن هذا تعسف .. فكلا الرجلين يجعل العلم أداة الخيال ، لكن (فيرن) يكتفى بالمغامرة القصصية المثيرة .. أما (ويلز) فيعرض تأملاته وآراءه ويعيد بناء المجتمع ونقده .. وهو شديد الإيمان بالمنهج العلمى فى القياس .. ويصف أبطاله وأحداث القصة وصفًا باردًا شبيهًا بعالم يصف أحد الأحياء الدقيقة تحت عدسة المجهر ..

* * *

ولد (ويلز) فى ٢١ سبتمبر ١٨٦٦ فى (بروملى) بـ (كنت) .. أبوه (جوزيف ويلز) كان يملك ورشة صغيرة ، بينما أمه كانت خادمة قبل أن تتزوج .. وعمل (ويلز) الصغير فترة فى محل لبيع الصوف فى (وندسور) [وصف هذه الفترة فى قصته (كيبس)].. ثم جاهد حتى تمكن من الدراسة فى الكلية الإمبراطورية للعلوم ، وتخرج فيها بامتياز .. ثم عمل مدرسًا .. وتفرغ للكتابة عام ١٨٩٣ .. وكتب فى كل شىء تقريبًا .. من نشأة وحيدات الخلية إلى مؤتمرات الصلح ، ومن ألعاب

الأطفال إلى قوانين الاقتصاد ..، ويرى د . (نويس عوض) أن الرجل كتب كثيرًا جدًا .. بل (ربما أكثر مما ينبغى ..) وهذا حق ..

وبعد حياة حافلة ، توفى (ويلز) فى ١٣ أغسطس عام ١٩٤٦ فى التاسعة والسبعين من عمره .. بعد أن ترك طابعه الذى لا يُمحى فى عقول هذا الجيل ..

* * *

فى المجموعة التالية نقدم لك - فى كتيبين - عددًا من القصص القصيرة الخيالية التى كتبها (ويلز) .. ونلمس فيها تنوعًا غير عادى .. ونقابل وحوشًا لم نتصور وجودها .. سترتجف أوصالنا حين ندخل الغرفة الحمراء ، ونضحك مما يحدث لـ (بايكرافت) .. وندهش لما نراه فى بلد العميان ..، سنقابل الكثير من التنوع .. والفكاهة .. والسحر والمأساة .. والشعر .. والقليل جدًا من الرعب ..

إذن .. دعونا نبدأ الآن .....

* * *

قصص الكتاب	الصفحة

* * *


(بولوك)
ورجل
(البوروه)

(بولوك) ورجل (البوروه)

تم اللقاء الأول بين (بولوك) ورجل (البوروه) فى شبه جزيرة (تيرنر) .. فى قرية مليئة بالمستنقعات ..

كان رجل (البوروه) منهمكا فى طعن امرأة فى قلبها (كأنه إيطالى من السوقة) ، ثم حاول أن يطعن (بولوك) بدوره ..

لكن هذا الأخير تحاشى الطعنة التى كانت فى طريقها لتمزق عضلة كتفه ، ورفع مسدسه نحو الرجل .. وأطلق الرصاص على يده ، فطار الخنجر فى الهواء ..

صوّب مسدّسه مرة أخرى ، لكنه أخطأ هدفه ..، عندئذ وقف رجل (البوروه) على باب الكوخ يحدق فى (بولوك) ..، وأدرك الإنجليزى أنه وحيد .. وأنه مريض يرتجف لخطورة الموقف ..

لقد حدث كل شىء فى وقت أقل من الوقت اللازم لقراءة هذه السطور ... وفى اللحظة التالية اختفى رجل (البوروه) تمامًا ..

لقد ماتت المرأة ..، وسار (بولوك) مترنحًا إلى مدخل الكوخ .. ينظر إلى الأكواخ التى تلتمع فى ضوء الشمس الحارق ..، وكان ستة من الحمالين الذين

جاءوا مع الحملة يقفون خارج أكواخهم ، ينتظرون فى تساؤل عما عساه يكون مصدر هذه الطلقات ..

فى حذر خرج (بولوك) من الكوخ قاصدًا النهر .. ناظرًا فوق كتفيه من حين لآخر .. لكن رجل (البوروه) كان قد تلاشى ، وبعصبية اعتصر (بولوك) المسدس فى قبضته ..

جاء أحد الرجال ليشير إلى الأشجار خلف الكوخ ، حيث تلاشى رجل (البوروه) .. وشعر (بولوك) بأنه كان أحمق إلى حدّ مطلق .. والأدهى هنا أن عليه أن يخبر (ووترهاوس) بما حدث .. (ووترهاوس) المثالى المتحفظ الذى لن يأخذ الأمور ببساطة أبدًا ..

تبًا لهذا الحظ السيئ الذى يلازم (بولوك) منذ جاء إلى ساحل إفريقيا الغربى !.. لقد سئم هذه الحملة تمامًا .. وفى مؤخرة رأسه ظل يتساءل فى ريبة عن المكان الذى يربض فيه رجل (البوروه) ..

لم يكن ما رآه من مصرع المرأة ليصدمه .. فلقد رأى الكثير من الوحشية فى الشهور الثلاثة الأخيرة .. رأى نساء قتيلات ، وأكواخًا محترقة ، وهياكل عظمية جافة ، على طول الطريق من نهر (كيتام) إلى هنا .. حتى أن حواسه تبلدت تمامًا ..

مضى إلى الظل تحت أشجار البرتقال ، حيث كان (ووترهاوس) مستلقيًا ، شاعرًا أنه تلميذ ذاهب إلى مكتب ناظر المدرسة ليلقى عقابه ...

كان (ووترهاوس) .. نائمًا تحت تأثير دواء (الكلوروداين) المنوم .. وجلس (بولوك) جواره ، وأشعل غليونه منتظرًا حتى يصحو ..

راح يتأمل الأسلحة التى جمعها (ووترهاوس) من قبائل (المندى) ، والتى كان ينوى شحنها فى قارب إلى (سوليما) ..

وصحا (ووترهاوس) وتثاءب .. وتمطّى معلنًا أنه يشعر بالانتعاش ، فجلب له (بولوك) بعض الشاى .. وراح يحكى له ما حدث اليوم .. ولم يكن ردّ فعل (ووترهاوس) عنيفًا كما توقع (بولوك) .. بل كان مروعًا !.. لم يكتف الرجل بالاستنكار .. بل راح يؤنب (بولوك) .. بل ويهينه :

- أنت واحد من هؤلاء الحمقى - حطب جهنم - الذين لا يعتبرون الزنوج بشرًا .. لا يمكننى أن استمتع بالمرض إلا وأراك قد تورطت فى عمل قذر .. للمرة الثالثة فى شهر واحد أراك تقع فى مشاكل مع الوطنيين ..

لكنك فى هذه المرة تستحق انتقامًا ..

(بوروه) ؟ من جديد ؟ إنهم ما زالوا يحملون لك الضغائن منذ قمت بكتابة اسمك السخيف على صنمهم .. وهم لا ينسون الإساءة أبدًا كالشياطين .. أنت تجعلنى أخجل من كونى متحضرًا ..

لو أننى ورطت نفسى ثانية مع غبى غرير مثلك .. فسوف ....

ـ اهدأ يا (ووترهاوس) .. اهدأ ..

ثم حدق فى عين (ووترهاوس) .. وقال :

ـ مت بغيظك .. لقد سئمت كل هذا وأبغى الرحيل ..

عاد الهدوء إلى (ووترهاوس) .. فجلس .. وقال :

ـ حسن يا (بولوك) .. لكن .. لا أريد عراكًا ، لكننى أكره أن أرى خططى تنسف بسبب أشياء كهذه .. سأذهب معك إلى (سوليما) وأطمئن إلى أنك ركبت السفينة سالمًا .

ـ لست بحاجة لهذا .. أستطيع العودة وحدى ..

ـ لن تبتعد كثيرًا .. أنت لاتفهم (البوروه) ..

صاح (بولوك) فى مرارة :

ـ كيف كان لى أن أعرف أن المرأة تخص رجل (البوروه) ؟!

ـ حسن .. لقد كانت كذلك .. ولم يعد باستطاعتك إصلاح هذا .. حسن .. اذهب وحدك إذن !.. أتمنى أن أعرف ما هم فاعلون بك .. أنت لا تفهم أن قواعد (البوروه) هى لهذا البلد بمثابة القانون .. الدين .. الدستور .. الطب ... ومن حسن الحظ أن حمّالينا هم من قبيلة (المنديس) ..

وشرع يفكر .. وكانت أفكاره كلها شنيعة .. من ثَمّ تناول البندقية وغادر المكان وهو يردف :

ـ لو كنت مكانك لما ابتعدت كثيرًا .. سأذهب لأرى ما أستطيع معرفته بصدد ما حدث .

وفى الخيمة بقى (بولوك) وحيدًا يتأمل ، ويعيد إشعال غليونه :

ـ لقد خلقتُ للحياة المتحضرة.. وكلما عدت إلى (لندن) أو (باريس) أسرع كلما كان هذا أفضل لى ..

وفى ندم غمغم :

ـ ليتنى أصبت ذلك المتسول فى مقتل !

بعد هنيهة عاد (ووترهاوس) حاملاً أخبارًا سيئة ..

يبدو أن رجل (البوروه) كان عضوًا بارزًا فى هذا المجتمع الوثنى ..، بل إنه كان من الأطباء السحرة ..، وكانت القرية كلها مهتمة بمجرى الأحداث ..، والجميع يعلم أنه مختف فى الغابة ..

- واضح أنه ينتوى شيئًا ما ..

قالها (ووترهاوس) وعاد للصمت .. فسأله (بولوك) بإلحاح :

- وماذا بوسعه أن يفعل ؟

ظل (ووترهاوس) محتفظًا بالغموض ، إلى أن فقد أعصابه وصاح :

- وكيف لى أن أعرف بحق الجحيم ؟.. لقد حاول أن يقتلك فى الكوخ .. وفشل .. الآن أحسبه سيجرب شيئًا أكثر فعالية .. ولا أريد بهذا أن أدمر أعصابك ..

وفى المساء ، إذ جلسا جوار النار ، حاول (بولوك) ثانية أن ينتزع من (ووترهاوس) تصوره لما ينوى (البوروه) عمله .. فقال هذا :

- من يدرى ؟.. إنهم أناس متقلبون واسعو الخيال ، ولديهم عديد من الحيل القذرة ..

وهنا التمع وهج .. وصوت انفجار دوى من قلب

الظلمة خلف الأكواخ .. وانطلقت رصاصة تصفر جوار رأس (بولوك) .. [على الأقل كان هذا الأسلوب مألوفًا] .. ووثب السود من حيث جلسوا حول النار ، وأطلق أحدهم النار صوب مصدر الطلقة ..

ودون أن يتحرك (ووترهاوس) صاح فى (بولوك) :

- من الأفضل أن تعود إلى الكوخ ..

نهض (بولوك) ملوحًا بمسدسه .. فهو لا يخشى القتال بهذا الأسلوب .. لكن الرجل الذى يستعين بالظلام ، إنما يستعين بأفضل الدروع قاطبة ، ولهذا وجد (بولوك) أنه من الحكمة أن يلجأ إلى الكوخ .. ويختفى فيه .

وقضى الليل فى محاولة عسيرة للنوم ، تقطعها أحلام مزعجة .. خاصة وجه رجل (البوروه) يرمقه فى ظلال الكوخ .. وآلام فى العظام ..

وفى ضوء الفجر الأبيض - بينما كانوا يعدون القوارب البدائية للرحيل - انطلق سهم ليستقر عند قدمى (بولوك) .. وكالعادة لم يستطع الرجال أن يجدوا راميه .

تلقائيًا - بعد هذين الحادثين - بدأ الرجال يتجنبون (بولوك) ، وللمرة الأولى فى حياته شعر (بولوك)

بالحاجة إلى أن يختلط بالزنوج ..، لقد وجد نفسه فى قارب .. بعيدًا عن (ووترهاوس) .. جالسًا وحيدًا منبوذًا فى المقدمة ، والمشكلة الأسوأ كانت إقناع الرجال ـ الذين لم يحبوه قط ـ بأن يبقوا القارب فى وسط النهر بعيدًا عن كلتا الضفتين ..

إلا أنه استطاع أن يقنع (شكسبير) ـ الرجل الهجين من (فريتاون) ـ بأن يأتى ليجلس جواره ، ويحدثه عن (البوروه) ..، وقد فعل هذا الأخير ذلك فى تحرر وترحيب ..

القارب ينساب فوق المياه الفضية .. والأشجار المنحنية على الجانبين .. ونباتات البردى ..

أما (شكسبير) فراح يحكى بانجليزيته المشوهة كيف يرمى (البوروه) بلعناتهم .. وكيف يرسلون العفاريت والشياطين .. كيف عذبوا وذبحوا أبناء (إيجبيو) .. وكيف خطفوا تاجرًا أبيض أساء إليهم .. وكيف بدت جثته حين وجدها الباحثون ..

راح (بولوك) يسمع فى هلع هذه القصص ، وهو يلعن الإرساليات والحكومة البريطانية المتراخية فى إحكام نظامها على هذا القطاع المظلم من (سيراليون) .

* * *

فى اليوم التالى وصلوا إلى (سوليما) ، حيث صار بوسعهم أن ينشقوا أنسام البحر ..، لكن (بولوك) كان مضطرًا إلى قضاء خمسة أيام هنا قبل أن يبحر إلى (فريتاون) ..

ولما كان (ووترهاوس) يشعر باطمئنان نسبى نحو صديقه هنا ، فقد تركه عائدًا مع الرجال إلى (جبيما) ، وتعرّف (بولوك) على تاجر أبيض ـ الوحيد الذى وجده فى (سوليما) ـ هو يهودى برتغالى يُدعى (بيريرا) .. وبحكم الضرورة صار (بولوك) صديقًا حميمًا له .. برغم انجليزية البرتغالى الشنيعة ..

ومرّ اليومان الأولان بلا مشاكل ..

إلا أنه فى المساء تلقى (بولوك) النبأ الرهيب ، أن رجل (البوروه) موجود فى (سوليما) الآن .. وكانت وسيلة إبلاغه بالنبأ ، هى قذيفة من الحديد مزقت لحم كتفه ، كانت المسافة طويلة ، واستهلكت القذيفة أكثر قوتها فى الوصول إليه .. لكن الرسالة كانت واضحة بما يكفى ..

وقال له البرتغالى حين عرف بالأمر :

ـ (هادا) انتقام .. لقد أصابه الجنون حين عرف أنك

ستغادر البلاد .. لن (يتدخل) أحد الوطنيين فى الأمر ، وعليك أن تصفى الأمر بنفسك .. ثمّ بعد (دالك) تجىء مشكلة السحر الأسود .. أنا لا أؤمن به .. (هرافات) .. لكنك - طبعًا - ستظل قلقًا من فكرة أن هناك رجلاً أسود يرقص حول النار فى ضوء القمر ، كل ليلة .. كى يرسل اللعنات عليك ..

- الأسوأ هو أننى أرى وجهه فى كل أحلامى .. وجهه المقلوب حين نظر لى من فوق ذراعه وكشر عن أنيابه .. أعرف أن هذا حلم طيلة الوقت ، لكنى لا أعرف كيف أصحو منه .

- آه ! (هدا هرافات) !.. يقول رجالى إن (البوروه) قادرون على إرسال الثعابين .. هل رأيت ثعابين فى (سوليما) ؟

- رأيت واحدًا هذا الصباح ، وقتلته .. كدت أدوس عليه حينما صحوت من النوم !

- آه !.. (هدا) صدفة !.. لكن يجب أن تكون حذرًا .. هل تشعر بآلام فى (عضامك) ؟

- حتمًا ..!.. ظننتها بسبب داء (الميازما) .

- آه !.. صدفة !.. منذ متى ؟

عندئذ فقط تذكر (بولوك) أن هذه الآلام بدأت فى الليلة التى تلت معركة الكوخ ..

لكن (بيريرا) قال مطمئنًا :

- فى رأيى أنهم لا يبغون قتلك .. أعتقد أنهم يريدون (إهافتك) بالثعابين وآلام (العضام) (هتّى) تكره الحياة .. وتنتحر .. بالطبع (هادا هرافات) .. كلام فى كلام .. فلا تقلق ..

* * *

بعد ظهر ذلك اليوم قتل (بولوك) ثعبانين فى خيمته .. ولاحظ زيادة غير معقولة فى النمل الأحمر بالمكان ..

وفى المساء راح يثرثر مع أحد رجال (المندى) .. الذى عرض عليه خنجرًا صغيرًا ، وراح يشرح له كيف يضرب به العنق .. حتى أن (بولوك) شعر برجفة ، إلا أنه - لأسباب معينة - شكر الرجل ووعده ببندقية ذات ماسورتين مكافأة له ..

وفى كوخ (بيريرا) - حيث جلس الرجلان الأبيضان يلعبان الورق - جاء (المندى) ، حاملاً شيئًا ما فى حقيبة من القماش الوطنى غارقة فى الدماء ..

صاح (بولوك) فى لهفة :

ـ ليس هنا !

لكنه كان قد تأخر .. لأن الرجل المتحمس فتح الحقيبة .. ورمى برأس رجل (البوروه) المقطوع على المائدة .. ، تدحرج الرأس فوق أوراق اللعب راسمًا خطًا داميًا وراءه .. ثم سقط على الأرض وعيناه ترمقان (بولوك) فى حدة ...!

وثب (بيريرا) فى فزع .. وراح يسبّ ويلعن بالبرتغالية .. فى حين وقف (المِندى) ينتظر نصيبه من الصفقة .. قائلا :

ـ (بُندكيّة) !

أى أنه يريد البندقية التى وعده (بولوك) بها إذا قتل الرجل ..

ونظر (بولوك) إلى الرأس .. كان يحمل ذات التعبير الذى كان فى أحلامه ..

استعاد (بيريرا) انجليزيته أخيرًا .. فقال :

ـ ألم تقتله بنفسك ؟

ـ لماذا ينبغى على ذلك ؟

ـ لكنه لن يستطيع أن (ينتزعه) الآن !

ـ ينتزع أى شىء ؟

ـ عليك أن ترسل لى أوراق لعب جديدة من (فريتاون) .. لقد اتسخت هذه بالدماء .

ـ ينتزع أى شىء ؟!

ـ إنها (هُرافة ، الدَنوج يدعُمون ، هادا هُرافة) ـ أنه لو سحرك (البوروه) فعليك أن ترغمه على (انتزاع) السحر ، أو تقتله بنفسك ..

أطلق (بولوك) سبّة من تحت شاربه ، وراح يحملق فى الرأس .. كان بريق العينين غير محتمل ، من ثمّ وجه ركلة إلى الشىء .. فتدحرج بضع ياردات ثم عاد يستقر فى ذات الوضع المقلوب ، وعيناه تحدقان فى (بولوك) ..!

ـ (هادا) قبيح .. قبيح جدًا ـ قال البرتغالى ـ إنهم يصنعون (هادى) الشقوق فى وجوههم بالسكين ..

ـ (بُندكية) !

قالها رجل (المِندى) واضعًا يده على كتف (بولوك) .. فقال (بولوك) فى عصبية :

ـ لك بندقيتان لو أنك أخذت هذا الشىء المربع بعيدًا

لكن الرجل رفض .. لم يكن يريد سوى بندقية واحدة له لغرض عاجل .. فقدم له البرتغالى بندقية من عنده ،

ورحل الرجل وبقى (بولوك) يرمق هذا الشيء على الأرض .

ضحك (بيريرا) ضحكة عصبية وقال :

- غريب أن رأسه يفضل الوضع المقلوب .. لابد أن (مُهَه) ثقيل جدًا .. مثل (هادى) الدمى التى تعتدل كلما (أرجهتها) ..

نهض (بولوك) وحمل الرأس متثاقلاً قاصدًا كوخه .

كان ينوى أن يحفر قبرًا ويدفنه فيه حالا ..، وكان واثقًا بأنه حمل الرأس من شعره .. لكن لابد أنه كان مخطئًا .. لأنه حين نظر ليده وجد أنه يحمل الرأس مقلوبًا من رقبته ..!

دفنه قبل الغروب فى البقعة الشمالية من الكوخ ، حتى لا يضطر للمرور بالقبر فى الظلام حين يعود من عند (بيريرا) ، وقبل أن ينام كان عليه أن يقتل ثعبانين آخرين ..

وفى الظلام صحا على صوت شىء يخدش فى الأرضية ..

جلس فى الفراش ساكنًا .. وتحسس مسدسه تحت الوسادة .. هو ذا صوت حشرجة .. نهض (بولوك) وأطلق رصاصة باتجاه الصوت ..

وفى اللحظة التالية رأى شيئًا معتمًا يعبر الباب المغمور بزرقة باهتة ..

- كلب !

قالها (بولوك) وعاود الرقاد ..

فى الفجر صحا شاعرًا بعدم الارتياح .. ألم عظامه يزداد .. راح يرمق السقف بعض الوقت ، ثم - إذ تزايد الضوء - استطاع أن يرى ذلك الشىء المعتم الملقى على الأرض .. وثب إلى الأرض ليرى أكثر .. وعندئذ وجد أنه يحدق فى رأس رجل (البوروه) !.. لقد مزقه الكلب تمزيقًا وفتك به النمل ..، لكنه ظلَّ بالصدفة فى ذات الوضع المقلوب ، وتلك النظرة الشيطانية المقيتة فى عينيه ..

كان الرعب يغمره حين غادر الكوخ .. وفى ضوء الفجر المنعش .. وأمام منظر الخضرة التى تتراقص مع النسيم ؛ بدأ الذعر يفارقه تاركًا مكانًا للتعقل فى ذهنه المكدود ..

وحين حكى لـ (بيريرا) ما حدث .. قال له هذا باسمًا :

- ما كان ينبغى أن (تُهيف هادا) الكلب !

طيلة اليومين التاليين - وحتى جاء المركب البخارى - ظل (بولوك) يحاول الخلاص من الرأس بشتى السبل ..

فى البداية ذهب إلى البحر ورماه هناك .. لكن هذا - بمعجزة ما - نجا من الأسماك والتماسيح ، حيث رماه المدّ على الشاطئ ليجده رجل عربى مثقف .. حمله كشىء طريف إلى (بيريرا) و (بولوك) عارضًا بيعه لهما ..، لكن الرجل وجدهم مذعورين إلى حد لا يوصف ، حتى أنه بدأ يشعر بالذعر هو الآخر ..

لهذا غادر المكان .. فما إن مرّ بكوخ (بولوك) حتى رمى الرأس بداخله .. ليكتشفه (بولوك) فى الصباح الباكر !

إلى هنا بدأ (بولوك) يدخل فى حالة جنون .. يجب أن يحرق الشىء .. بنى محرقة صغيرة من خشب الورد .. وكاد يبدأ حين سمع صفارة القارب البخارى الذى يقل الناس من (مونروفيا) إلى (باثورست) .. القارب الذى ينتظره ..

- حمدًا لله !

قالها (بولوك) فى خلاص ، عالمًا معنى هذا

الصوت ..، وبيد مرتجفة أشعل النار فى المحرقة ورمى الرأس فيها ، ثم انصرف ليقرئ (بيريرا) الوداع ، ويحزم حقائبه ..

وبعد الظهر راح يرمق شاطئ (سوليما) يصغر .. ويصغر .. كأن السماء تطبق على الأرض فى الأفق .. مقصّ عملاق يزيل متاعبه وذكرياته الأليمة ..، هو ذا يفارق الأرض التى يخيم عليها شبح (البورووه) وسحر (البورووه) .

صاح فى سعادة :

- وداعًا يا (بورووه) ! وداعًا .. وليس إلى اللقاء !

جاء قبطان القارب ووقف جواره يرمق الماء ، وتمنى له ليلة طيبة .. ثم بصق على الأمواج فى بساطة .. وقال :

- لقد وجدت تحفة جميلة على الشاطئ اليوم .. شيئًا لم أر أحدًا يفعله فى هذه الأصقاع ..

- وما هو ؟

- رأس مجفف .. مدخن !

- ماذا ؟

- رأس .. رأس واحد من هؤلاء (البورووه) مزخرف

بعلامات السكاكين .. هيه ؟.. ماذا دهاك ؟.. ما كنت لأحسبك عصبيًا إلى هذا الحدّ .. يا لاخضرار وجهك !.. بحق السماء أنت بحار ردىء ..

رباه !.. لكم تبدلت ملامحك .. حسن .. لقد وضعتُ هذا الرأس مع بعض الثعابين فى الكحول فى (مرطبان) بقمرتى ، حيث أحب أن أحفظ هذه الطُرف .. والعجيب أنه يميل لاتخاذ وضع مقلوب .. ولأشنق إن لم يكن هذا صدقًا !

أطلق (بولوك) صرخة صامتة ، ودسّ أصابعه فى شعره .. ولثانية خطر له أن يرمى بنفسه إلى الماء .. ثم عاد إلى صوابه ..

صاح القبطان فى هلع :

ـ (جاك فيلبس) !.. أبق هذا الرجل بعيدًا عنى !.. لا تدن منى يا سيد !.. ماذا دهاك ؟.. أتراك مخبولاً ؟!

لم ير (بولوك) جدوى من الشرح .. لذا قال وهو يمسك رأسه :

ـ أعترف أننى فقدت صوابى .. إنه ذلك الصداع المفاجئ .. أرجو أن تغفر لى هذا ..

كان شاحبًا يغمره العرق .. لم يرد أن يحسبه القبطان

مخبولاً .. وأراد أن يستعيد ثقة هذا الأخير فراح يجيب عن أسئلته .. ويتبادل معه حديثًا شبه طبيعى .. بل وراح يسأله عن تجارة هذا الأخير فى الطُرف والغرائب .

راح القبطان يصف له الرأس بالتفصيل .. وشعر (بولوك) بأن القارب صار شفافًا كالزجاج . يمكنه أن يرى من خلاله ذلك الرأس يرمقه من قمرة القبطان ..

وهكذا قضى (بولوك) ساعات أسود من ساعاته فى (سوليما) .. الكوابيس تطارده فى كل ليلة فيصحو متخشبًا ، وشبح صرخة مريعة فى حلقه ..

ترك الرأس فى (باثورست) ، حيث غيّر القارب متجهًا إلى (تينيريف) لكنه لم يترك كوابيسه ولا آلام عظامه .. وفى (تينيريف) حاول أن ينسى .. شرب كثيرًا .. لعب الشطرنج .. بل وقرأ الكتب ، لكن الرأس راح يطارده .. كان يعرف أن خياله صار خائنًا له .. ولم يعد ينتمى إليه ، لقد صار البحر الواسع ورفاق السفر كستار يفصله عن العالم الحقيقى .. لكن رأس رجل (البوروه) الشيطانى كان يمزق هذا الستار .. كالشىء الوحيد الحقيقى فى هذا العالم ..

وغارقًا فى هذا الصراع المحموم مع خياله ؛ وصل (بولوك) إلى (انجلترا) ..

رست السفينة فى (ساوثها مبتون) ، واتجه هو إلى (ووترلو) ليلقى مدير البنك الخاص به .. حيث عقد معه بعض صفقات العمل فى حجرة منعزلة .. لكن الرأس ظل يتدلى فوق رأسيهما طيلة الوقت ، كأنه قطعة زينة .. بينما قطرات الدم تتساقط منه فوق حاجز المدفأة .. لكن المدير بدا كأنه لا يراه ..

قال (بولوك) للمدير :

ـ هل توصى لى باسم طبيب مختص فى الأمراض العقلية !..

إننى أعانى بعض الـ .. ماذا أقول ؟.. هلاوس !

وهنا ضحك الرأس فى وحشية ..

* * *

حاملاً عنوان الطبيب فى جيبه ، اتجه (بولوك) إلى (كورنهيل) وقرر عبور الشارع ..، إن عبور الشارع ـ حتى بالنسبة لـ (لندنى) متمرس ـ لأمر عسير .. طوفان من العربات وعربات الأجرة والحافلات كلها تتحرك فى تيار ثابت لا يتزحزح .. وبالنسبة لرجل قادم من (سيراليون) يبدو الشارع فوضى من الارتباك المجنون .. لكن حين ترى رأسًا مقلوبًا يتواثب بين قدميك .. عندئذ لن تبالى بأن تلقى حتفك فى حادث ..

وإذا ركل (بولوك) الشىء ليبعده عنه ، شعر بشىء يصدمه بعنف فى ظهره .. وألم ساخن يغزو ذراعه ..

أخرجوه من بين حوافر الخيل التى كانت تجرّ الحافلة ، وقد تهشمت ثلاث من أصابع يده .. نفس الأصابع التى أطلق عليها رصاصته فى كفّ رجل (البوروه) ..

وليومين لم يدر بأى شىء سوى الرائحة الحلوة الحادة المميزة لـ (الكلوروفورم) ، وجراحات عدة لم يشعر بألمها ..، والرقاد بلا حراك .. وحين عاوده الكابوس القديم فقط تذكر أنه لم يره منذ يوم كامل ..

فى أول فرصة صارح (بولوك) الطبيب بمشكلة كان يدرك جيدًا أنه سيجن حتمًا ما لم يحل شىء بينه وبين ذلك .. لم يذكر التفاصيل الحقيقية .. قال إنه رأى قطع رأس فى (داهومى) ومن لحظتها يطارده الرأس المقطوع فى كل مكان ..

سأله الطبيب فى تردد :

ـ هل كانت تربيتك الدينية طيبة فى طفولتك ؟

ـ لا ..

ـ لا أدرى إن كنت قد سمعت عن العلاج الروحى فى (لوردس) ؟

قال (بولوك) وهو يرمق الوسادة :

ـ لا أحسب هذا سيعيننى كثيرا .. للأسف ..

كان الرأس يرمقه الآن مكشرًا عن أنيابه ، والطبيب يقول :

ـ كل ما أنت فيه تخيلات .. لقد انهارت أعصابك ..

ولسوف أقدم لك وصفة طبية تقوى جهازك العصبى وخاصة مخك .. كما أقترح أن تسترد عافيتك .. ابحث عن الهواء المنعش فى (اسكتلندا) .. (النرويج) أو (الألب) ..

* * *

حين غادر المستشفى حاول (بولوك) بأمانة أن ينفذ نصائح الطبيب .

كان هذا هو (نوفمبر) فحاول أن يلعب كرة القدم .. لكن اللعبة تحولت إلى ركل رأس مقلوب .. من ثَمَّ كان يركله فى هلع ودون تركيز ..، حتى حين حاول أن يلعب فى مركز حارس المرمى .. كان يرى الرأس قادمًا نحوه فيصرخ ويفرّ مذعورًا ..

وبدأ رفاقه يتحاشونه إزاء تصرفاته المثيرة للريبة ..

كانت أوهامه تزداد تجسدًا .. صار الرأس يثرثر معه .. بل صار له ملمس مادى واضح ..

وفى مرتين على الأقل تبادل الكلام مع الرأس أمام الناس ..

جاء ابن عمه ذات يوم فى (ديسمبر) ليراه .. ويتأمل وجهه الشاحب غائر العينين ..، لكن (بولوك) لم ير فى القبعة التى يحملها ابن عمه سوى رأس مقطوع مقلوب يتأمله بإصرار ..

وجاءت النهاية فى صباح (الكريسماس) ..

ظل محمومًا طيلة الليل .. والكوابيس تطارده ..

وفى ضوء الفجر الشاحب البهيم جلس فى الفراش ، ورأى الرأس واقفًا جوار فراشه فى وعاء برونزى كان هناك بالأمس ..

قال ورجفة الشك فى صوته :

ـ أعرف أن هذا وعاء برونزى ..

غادر الفراش ببطء .. يرتجف .. وسار إلى موضع الوعاء .. الآن سيجد أن خياله قد خدعه حتمًا .. وأخيرًا ـ بعد قرون من التردد ـ تلمست أنامله خدّى الرأس ..! إنه حقيقى !!

سحب يده فى توتر .. هذه هى المرحلة الأخيرة إذن .. حتى حاسة اللمس قد خانته وانضمت إلى عدوه ..

شق طريقه إلى المائدة .. وتناول الموسى من الدرج ، وعاد ليجلس على الفراش .. وفى المرآة رأى وجهه شاحبًا .. مفعمًا بالمرارة اليائسة ..

راح يستعيد تفاصيل قصته فى ذهنه .. تفاصيل حياته الآثمة السابقة ..

كل شيء يعود إلى ذهنه فى ضوء الفجر البارد .. الكوخ .. رجل (البورره) .. والهلوسة !.. بالتأكيد هى هلوسة !.. للحظة تمسك بالأمل .. رفع عينيه ليجد الرأس حيث هو يضحك ضحكته الشيطانية ..!

تحسس عنقه ببطء باحثًا عن نبض شريان .. كان الصباح باردًا وملمس نصل الموسى على لحمه كالثلج .

٢٣ مايو ١٨٩٥

* * *



جزيرة الـ (إيبيورنيس)

انحنى الرجل ذو الوجه الملىء بالندوب فوق المائدة .. ونظر إلى الحزمة التى أحملها .. ثم سألنى :

- زهور أوركيد ؟

- قليل منها ..

- أى شىء جديد ؟.. لا .. لا أحسب هذا .. لقد زرت هذه الجزر منذ خمسة وعشرين عامًا .. ولئن وجدت أنت جديدًا فيها فهو جديد تمامًا .. فأنا لم أترك الكثير لمن يأتون بعدى ..

- أنا لا أجمع الأشياء ..

قال الرجل وهو يحاول تقييمى بنظرة فاحصة :

- كنتُ شابًا آنئذ .. يا للّه !.. لكم جبت العالم !.. قضيت عامين غرب (الأنديز) .. وسبعة فى (البرازيل) .. وزرت (مدغشقر) ..

قلت له متوقعًا أنه سيكذب علىّ :

- لقد عرفت مستكشفين كثيرين .. فمن كنت تجمع له ؟

- (داوسون) .. تراك سمعت الاسم من قبل ؟

بدا لى الاسم مألوفًا بشكل ما .. ثم تذكرت (بوتشر داوسون) ..

– آه !.. إذن فأنت الرجل الذى رفع قضية من أجل مرتب أربعة أعوام ، بعدما عاش وحيدًا على جزيرة صحراوية !!

انحنى الرجل بأدب :

– أنا خادمك .. لقد صنعت ثروة فى تلكم الجزيرة دون مجهود يذكر ..

– كيف حدث هذا ؟ أنا لا أذكر القصة جيدًا ..

– حسن .. هل سمعت عن الـ (إبيبورونيس) ؟

– كان (أندروز) يحكى لى قصة عن جنس جديد يعكف على دراسته .. تلك المخلوقات لها عظمة فخذ تقارب الياردة .. وحوش .. لابد أنها كذلك ..!

قال الرجل ذو الندبة :

– أنا أصدقك .. كانت وحوشًا بالفعل .. وما رخ (سندباد) إلا تنويعًا على قصتها ..، ولكن متى وجدوا هذه العظام ؟

– منذ ثلاث أو أربع سنوات .. لماذا تسأل ؟

– لماذا ؟.. لأننى وجدت هذه الوحوش .. كان ذلك

منذ عشرين عامًا .. لم أستطع أن أمنع ذلك القارب اللعين من الضياع مع التيار ..

ثم صمت هنيهة .. وأردف :

– أراهن على أنه ذات المكان .. مستنقع على بعد تسعين ميلاً شمال (أنتانا ناريفو) .. هل تعرفه ؟

– لا .. لكن يخيل لى أن (أندروز) قال شيئًا عن مستنقع ..

– بالتأكيد هو .. على الساحل الشرقى .. وثمة شىء ما فى مائه يحول بين الجثث وبين التحلل ..، هل وجدوا مزيدًا من البيض ؟ لقد وجدت بيضًا يربو ارتفاعه على قدم ونصف .. يدور المستنقع حول المنطقة .. ومياهه مالحة ... كم من أوقات قضيتها معه !..

لقد ذهبنا – أنا وشابان من الأهالى – فى زورق بدائى بحثًا عن عظام .. ووجدناها فى ذات المكان .. ياله من عمل خلاق !.. تقضى الوقت تنقب فى الوحل بقضبان حديدية .. وكثيرًا ما يتهشم البيض ..، إننى أتساءل عن الفترة التى انقضت منذ كانت تلك (الإبيورونيس) تعيش(*) ، لقد كان البيض طازجًا !

(*) لـ (هـ . ج . ويلز) : لم ير أى أوروبى طيور الـ (الإبيورونيس) باستثناء (ماكاندرو) الذى زار (مدغشقر) عام ١٧٤٥ . وروايته مشكوك فيها .

صدقنى ! لقد سقطت واحدة من أحد الزنوج فى أثناء نقلها للقارب .. وتهشمت .. الأحمق !.. لكنها كانت طازجة .. حتى رائحتها كانت طيبة .. برغم أن الأم قد ماتت منذ أربعمائة عام .. المهم .. استغرقنا يومًا كاملاً لاستخراج هذا البيض سالمًا .. وكسانا الوحل تمامًا ، بعد هذا بفترة ذهبت لأرى البيض الذى لديهم فى مُتحف التاريخ الطبيعى فى (لندن) .. ووجدت أنه مهشم .. متشقق .. مع أجزاء كثيرة مفقودة ... أما بيضى أنا فكان بحالة رائعة .. وشعرت بالغيظ من الأخرق الذى تسبب فى كسر بيضة ـ بعد ثلاث ساعات من العمل ـ لمجرد أن عقربًا لدغه .. لقد ضربته مرارًا !

ومدّ الرجل يده إلى غليون من الخزف ، قربت منه كيس التبغ الخاص بى ، فملأ الغليون منه وذهنه شارد . ثم واصل الرد :

ـ حصلت على ثلاث بيضات أخرى ، طازجة تمامًا .. وعدت إلى الخيمة لأعد بعض القهوة ، تاركًا تابعىّ الوثنيين على الشاطئ ، ولم يخطر لى قط أن الوغدين سيتحرشان بى .. لابد أن سم العقرب ، والركل الذى

أوسعته لأحدهما ـ الذى كسر البيضة ـ قد ضايقه .. وكان ذا طبيعة نارية .. واستطاع أن يقنع الآخر ..

والآن أذكر أننى كنت جالسًا أدخن وأغلى الماء ، وأتأمل المستنقع فى إعجاب .. إذ يتموج باللونين الأزرق والأحمر القانى .. ومن بعيد أرى الجبال ، والسماء خلفها حمراء كفم فاغر ..

لم أعرف أن الكافرين قد قررا أن يرحلا ويتركانى ، ليس معى سوى زاد ثلاثة أيام وخيمة قماشية .. سمعت جلبة خلفى .. فنظرت لأجدهما فى القارب وقد ابتعدا عشرين ياردة عن الشاطئ ، فهمت ما يحدث على الفور .. ولم يكن فى بندقيتى رصاص .. لكننى كنت أملك مسدسًا صغيرًا فى جيبى .. فسحبته ..

قال الرجلان شيئًا لى ... فصوبت الرصاص على الرجل السليم لأنه كان يمسك المجداف ، وأطلقت رصاصة أخطأته .. وسمعتهما يضحكان .. تمالكت أعصابى وأعدت التصويب .. فلم يضحك هذه المرة .. سقط فى الماء والمجداف معه ..

عدت أصرخ فى الآخر كى يعود .. لكنه أبى .. صوبت المسدس نحوه وأطلقت رصاصة ، لكنه كان قد

ابتعد كثيرًا .. دعنى أصارحك بأننى شعرت بحماقتى .. ظللت أنادى حتى استحال صوتى صراخًا ، ولم يعد أمامى سوى أن أسبح فى الماء ، مجربًا حظى مع سمك القرش ..

فتحت مطواتى وأطبقت عليها بأسنانى ، وقفزت إلى الماء .. لأجد أننى لم أعد أرى القارب .. لكنى اتجهت إلى حيث ظننت أنه موجود ، على أمل أن الرجل لا يحسن الملاحة ، وبالتالى سيبقى فى اتجاه واحد ، كانت النجوم الآن قد بدأت تلتمع عبر الأزرق العظيم .. لكننى سبحت كالأبطال ..

الآن ساد الظلام الكون ، وبدأت أرى كل أنواع الأشياء المتألقة فى الماء .. حتى أننى شعرت بدوار ، وبدأت أعجز عن تمييز : هل أنا أسبح وكعبى لأسفل أم رأسى .. من بعيد أرى القارب أسود كالخطيئة .. وأدنو منه .. وأخيرًا أتسلق القارب ببطء متوقعًا أن يتحرك الكافر ويهاجمنى .. لكنه لم يفعل ..

بعد وقت غير قصير ناديته باسمه فى الظلام .. فلم يجب .. وكنت منهكًا بحيث لم أستطع أن أمشى له .. فجلست فى مكانى ، وأعتقد أن النعاس غلبنى مرة أو

مرتين .. ، وحين جاء الفجر وجدته ميتًا كمقبض الباب ومحتقنًا .. فى وسط القارب رأيت بيضاتى الثلاث والبسكويت والقهوة .. وتحت جثة الرجل قنينة كحول ميثيلى .. ولم أجد مجدافًا ، فجلست فى القارب على أمل أن يجدنى أحدهم يومًا ما .. وقلت لنفسى إن ثعبانًا أو عقربًا أورد الرجل حتفه ..

كان الأفق خاليًا من أية علامات تدل على الأرض .. ، وحين علت الشمس السماء ، راحت تصب حرارتها فوق يافوخى .. حتى شعرت بمخى يغلى .. ، وهنا وجدت جريدة .. نسخة من جريدة (آرجوس) فرقدت على ظهرى وفردتها فوق رأسى .. يا لله ! ما أكثر فوائد هذه الصحف !.. أنا لم أقرأ صحيفة فى حياتى ، لكنى قرأت هذه بالذات أكثر من عشرين مرة .

ظللت ضائعًا عشرة أيام .. شيء بسيط حين تحكيه .. أليس كذلك ؟.. وفى اليوم السادس مرت سفينة على بعد نصف ميل منى .. وسمعت صوت موسيقا على سطحها .. وقفت ولوحت وصرخت .. وفى اليوم التالى قمت بتقشير جزء من بيضة الـ (إبيورونيس) .. وجربت مذاقها .. لم يكن رديئًا .. له مذاق بيضة البط ..

بها ـ فى المخ ـ خيوط من دم متخثر لم أعرف مغزاه فى ذلك الوقت . المهم أن هذه البيضة كانت كافية لى ثلاثة أيام مع البسكويت ..

قشرت البيضة الثانية فى اليوم الثامن .. وأثارت هلعى ..

نعم ..!.. كانت تنمو ...، لقد ظلت مدفونة فى الوحل ثلاثمائة عام ، وبرغم ذلك لم يكن من الممكن أن تسىء فهم ما تراه .. كان هناك ــ ماذا تسمونه ؟ ــ آه !.. الجنين .. برأسه الضخم ، وظهره المنحنى ، وقلبه يخفق .. لقد فهمت ..! إننى أقوم بتفريخ بيض أضخم الطيور قاطبة فى قارب بدائى وسط المحيط الهندى ..!..

لو أن (دواسون) العجوز سمع هذه القصة !..

المهم أننى التهمت البيضة بمحتواها .. كل جزء منها ...، أما البيضة الثالثة فقد رفعتها للنور مرارًا ؛ محاولاً تبين ما يحدث بها .. لكن القشرة كانت سميكة للغاية .. كان هذا حين وصلت إلى الجزيرة .. وصلتها فجأة مع شروق الشمس ..

بعد معاناة من التجديف بيدى وصلت إليها .. جزيرة مساحتها أربعة أميال ، بها أشجار معدودة ، وينبوع

وبحيرة مفتوحة ، تسبح بها أسماك الببغاء ..، وضعت البيضة فوق صخرة ، لتكون فى أمان من الكسر .. ولتغمرها أشعة الشمس إن كانت لديها نية الفقس ..، ورحت أتفقد الجزيرة .. فوجدتها مملة ككتاب مواعظ .. لا شىء فيها يمت إلى جزيرة (روبنسون كروزو) الفاتنة .. وشعرت بأننى سأقضى سأمًا ..

لكنى سعيد الحظ .. إذ فى اليوم الأول هبّت عاصفة رعدية ، وأغرقت السيول الجزيرة ليلاً .. وكما تعلم لم يحتج الأمر لجهد كبير كى أفقد القارب الذى جئت به .. كان ذلك ليلاً حين صحوت على عواء الريح .. وجاءت موجة عاتية لتأخذ القارب بعيدًا عنى .. لكن البيضة ظلت سالمة ، لأنها كانت فى مكان مرتفع .. يا للّه !.. يالها من ليلة !

عند الفجر هدأت العاصفة وأشرقت الشمس .. وعندئذ فقست البيضة !.. نعم يا سيدى .. فقست وأنا أتخذها وسادة تحت رأسى .. سمعت قرقعة واهتزازًا ، فرفعت رأسى لأرى الرأس البنى الصغير يرمقنى من طرفها .. وراح يحاول الخروج من باقى البيضة ، فصحت به مرحبًا ..

كان ولدًا لطيفًا .. فى حجم دجاجة صغيرة .. مغطى بزغب دقيق ولن أقول ريشًا .. بصعوبة أصف لك مدى سرورى بمجيئة .. إنها لصحبة رائعة ، نظر لى ثم رمش بعينه كدجاجة .. وراح يفتش بمنقاره عن طعام ..، ناولته بعض سمك الببغاء ، فراح يلتهمه ، ثم فتح منقاره يطلب المزيد ..

كان طائرًا مسليًا فرخ الـ (إيبيورونيس) هذا .. يتبعنى فى كل مكان ، ويقف جوارى إذ أصطاد فى البحيرة ليشاركنى كل ما أظفر به .. وكان مرهف الحس كذلك ..

مع الوقت نما .. تكاد تراه وهو ينمو لحظة بلحظة ..، ولم أكن رجلاً اجتماعيًا ، لهذا ناسبتنى طباعه الصموت الهادئة ..، ومرّت أعوام سعيدة علينا فى هذه الجزيرة ، لم أكن أحمل همّ العمل ، لأن مرتبى يتراكم كل شهر عند (داوسون) .. فقط أزخرف الجزيرة بالقواقع وأرقب الطائر يكبر .. يكبر ..، لقد صار له عُرف .. وريش أخضر على مؤخرته .. حتى أننى بدأت أتساءل عما إذا كان لـ (داوسون) حق فى الطائر أم لا .. لقد كنت خليقًا بأن أجمع ثروة من عرضه

فقط لو غادرت الجزيرة ..، وفى آناء العواصف كنت أرقد جواره فى الكوخ الذى صنعته .. وأحكى له الأكاذيب ..، باختصار .. لو كان هناك طباق للتدخين لصارت هذه الجزيرة جنة حقيقية ..

الآن صار صديقى شامخًا بارتفاع أربعة عشر قدمًا .. له رأس كبير عريض .. وعينان بنيتان لامعتان واسعتان تحيطهما جفون صفراء ..، وكانت العينان فى مقدمة الرأس كالإنسان ، لا على جانبيه ككل الطيور ..، وهنا بدأت الجنة تتبدل ..

كان حظى مع الأسماك شحيحًا فى تلك الفترة .. ووجدت أن الطائر يلاحقنى بإلحاح وتأمل .. كنت جائعًا .. ولهذا حين نجحت أخيرًا فى صيد سمكة ؛ إذا باللعين يقتنصها .. وكانت الأعصاب متوترة فى ذلك اليوم على الجانبين .. لذا ناولته لكمة فوق رأسه ليرحل .. وعندئذ هاجمنى أنا !..

وأشار إلى الندبة على وجهه وقال :

ـ لقد أصابنى بهذه .. ثم ركلنى كأنه حصان جرّ .. نهضت لأجد أنه لم يفرغ بعد .. فغطيت وجهى بساعدىّ وعزمت على الفرار .. لكنه لاحقنى بساقيه السريعتين ،

وراح يركلنى ركلات كمطرقة الحداد .. فررت إلى البحيرة وغصت بها حتى عنقى ..

توقف على الشاطئ ـ كان يكره أن تبتل قدماه ـ وراح يصدر زمجرة خشنة .. ثم راح يذرع الشاطئ جيئة وذهابًا ..، أعترف أننى شعرت بضآلتى وأنا أرى هذه الحفرية الحية تذرع الشاطئ جيئة وذهابًا .. أنفى وجسدى ينزفان وقد صرت كلّى عصيدة من الكدمات ..

بدا لى الموقف مؤسفًا .. أنا الإنسان وريث الأجيال .. أنا الذى فقسته وعلمته وأطعمته .. أى نكران للجميل هذا !..

إلا أننى أملت أنه سيرى الأمور كما أراها فيما بعد ، ولابد سيشعر بالندم .. ربما لو قدمت له بعض الأسماك فإنه سيفعل الشىء المعقول .. احتجت زمنًا كى أتعلم مدى حقد وسواد قلب هذه الطيور المنقرضة ؟

لن أحكى لك عدد الحيل التى ابتكرتها لأسترد صداقة هذا الطائر .. بل جربت العنف ، رميت كرات من الفحم عليه من مسافة مأمونة .. لكنه ابتلعها ..، حاولت تجويعه بالكف عن صيد السمك .. لكنه راح يلتقط الديدان من المياه الضحلة جوار الشاطئ .. ولا داعى

أن أقول لك إنه أجبرنى على قضاء نصف حياتى فى مياه البحيرة .. والنصف الآخر فوق نخلة شامخة لا يستطيع الوصول إليها .. حتى غدا الوضع غير محتمل .. هل جربت فى حياتك النوم فوق نخلة ؟! أنه مؤلم فضلاً عن أنه مهين .. هذا الطائر اللعين يحكم جزيرتى ، بينما أنا الإنسان الذى كرمه اللّه غير مسموح لى بوضع قدمى على الأرض ..، شرعت أسبّه وألعنه من فوق النخلة ، فاكتفى بأن فغر منقاره فى وجهى ..

أخيرًا كان من الضرورى أن أقتله .. استعملت حيلة من حيل أمريكا الجنوبية .. فقمت بربط كل حبال الصيد عندى لتصنع حبلاً طويلاً طوله اثنتا عشرة ياردة أو أكثر .. وربطت قطعتين من الفحم إلى طرفيه ..، وأخيرًا رفعته فوق رأسى وأدرته عدة مرات ثم قذفته عليه .. فالتفّ الحبل حول ساقيه ودار عدة مرات .. وسقط الطائر أرضًا .. فما إن هوى حتى هرعت لأحزّ عنقه بمديتى ..

لا أحب أن أستعيد هذه الذكرى .. لقد كان غضبى ملتهبًا ، لكنى شعرت بأننى قاتل .. حين وقفت أرمق

دماءه تسيل فوق الرمال البيضاء .. وساقيه الجميلتين ترتجفان بالسكرات الأخيرة ..

يا له من مشهد !..

لقد عادت الوحدة إلى عالمى كلعنة .. وجلست أرمق جثته وأرتجف وأذرف الدمع .. كم كان طائرًا لطيفًا حين خرج من البيضة !. والآن لو كنت قد اكتفيت بجرحه .. لربما أمكننى تمريضه حتى يعود لصحته ، ولفهم أفضل .. ليتنى أستطيع حفر هذه الصخور لأدفنه .. لا أستطيع أكله لأننى شعرت بأنه كائن بشرى .. لهذا وضعته فى البحيرة وتركت الأسماك الصغيرة تنظف هيكله .. وبعد أيام جاء شاب فى يخت ليستكشف جزيرتى ..

كان هذا هو الوقت المناسب تمامًا ، لأنى كنت قد سئمت الوحدة .. وأزمعت إنهاء حياتى فى البحر ..

وحين عدت .. بعت العظام لتاجر يدعى (وينسلو) .. وباعها هذا لـ (هافرز) العجوز .. وهناك نسيها الرجل حتى مات فأثارت الانتباه .. وسمّاها العلماء (إيبيورونيس) .....ماذا ؟!

قلت له مكملاً الاسم :

- (إيبيورنيس فاستس) .. كان هناك طائر طول فخذه ياردة .. وكانوا يحبسونه الأكبر .. لهذا سمّوه (إيبيورونيس ماكسيماس) .. ثم ظهر طائر أكبر فسمّوه (تيتان) .. ثم جاء طائرك ... بعدها جاء طائر أكبر هو (فاستيماس)(*)

ابتسم الرجل ذو الندبة وقال :

- لكن هذا - مهما قلنا - هو شىء غريب فى حياة إنسان .. ألا ترى ذلك معى ؟!

رأس السنة - ١٨٩٤

* * *

(*) كلها تدريج لمعنى الضخامة فى اللاتينية .. (فاكسيماس) .. (تيتان) .. (فاستس) .. (فاستيمس) .


الغرفة الحمراء

الغرفة الحمراء

- أؤكد لك أن الأمر يحتاج لشبح قوى كى يخيفنى ..

قلتها .. ووقفت أمام النيران وكأسى فى يدى ..

- إنه اختيارك الخاص ..

قالها الرجل ذو الذراع اليابسة وراح يرمقنى شزرًا .

- لقد عشت ثمانية وعشرين عامًا .. ولم أر فيها شبحًا ..

راحت العجوز تحدق فى النيران ، وقد اتسعت عيناها .. وقالت :

- حقًا .. لكنك عشت ثمانية وعشرين عامًا .. لم تر فيها مثيلاً لهذا البيت ، هناك الكثير مما يمكن أن تراه حين يكون عمرك ثمانية وعشرين عامًا ..

وأرجحت رأسها ببطء من جانب لآخر :

- الكثير مما تراه .. وتندم عليه ..

شعرت أن العجوزين يحاولان بإلحاح المبالغة فى أمر الأهوال الروحية لمنزلهما .. فوضعت كأسى على المنضدة ورحت أجوب الحجرة ، وأختلس نظرة للمرآة فى نهاية الحجرة ..

- حسن .. لو أننى رأيت الليلة شيئًا ؛ فلسوف أزداد حكمة ..

لقد جئت للمهمة بعقل متفتح ..

وهنا سمعت صوت عصا .. وخطوات متثقلة فى الممر بالخارج .. وأصدر الباب صريرًا حين دخل عجوز آخر .. أكثر انحناءً وتجعدًا ، وأكثر تقدمًا فى العمر من الأول .. كان يستند إلى عكاز ، وثمة سحابة على عينيه .. بينما تتدلى شفته السفلى كاشفة عن أسنان صفراء نخرة .

اتخذ طريقه إلى (شيزلونج) ، وجلس عليه دون روية وراح يسعل .. لم تبد المرأة ما يدل على أنها لاحظت قدومه .. وواصلت التحديق فى النار ..

قال الرجل الأول حين توقف السعال :

- قلت إن هذا اختيارك الخاص ..

- هو كذلك .

هنا لاحظ الرجل الثانى وجودى للمرة الأولى .. فمال برأسه جانبًا ليرانى أفضل .. نظرت لعينيه الصغيرتين اللامعتين ، الملتهبتين للحظة .. على حين عاد الرجل الأول يقول له :

- ألا تشرب ؟

وأزاح نحوه زجاجة البيرة .. فصب هذا لنفسه كوبًا بيد مرتجفة أسقطت كثيرًا فوق المائدة .. ثمة ظل عملاق له على الحائط إذ ينحنى ويصب ويشرب ..، يجب أن أعترف بأننى لم أتوقع وجود هؤلاء الحراس الغريبين .. ثمة شىء فى ذهنى يجد فى الشيخوخة نوعًا من فقدان الآدمية .. إن الصفات البشرية تتساقط من الشيوخ يومًا بعد يوم دون أن يشعروا .. وهؤلاء الحراس الثلاثة يشعروننى بعدم الارتياح بصمتهم .. وانحناء ظهورهم .. وانعدام مودتهم تجاهى وتجاه بعضهم البعض ..

قلت لهم :

- لو أنكم أريتمونى تلك الغرفة المسكونة ؛ فلسوف أستريح ..

نظر لى العجوز ذو السحابة على عينيه لحظة واحدة .. لكن أحدًا لم يجبنى بشىء ..

أعدت الكلام بصوت أعلى :

- لو أريتمونى الحجرة المسكونة فلسوف أريحكم من عناء تسليتى ..

قال الرجل الأول وهو ينظر لقدمىَّ :

- ثمة شمعة على مصراع الباب .. لكن إذا كنت ستدخل الغرفة الحمراء الليلة ......

[تدخلت العجوز قائلة : هذه الليلة دون غيرها من ليال !]

- ...... فيجب أن تذهب وحدك .

- حسن .. وأى طريق أسلك ؟

- تمشى عبر هذا الممر حتى تبلغ بابًا .. ثم درجًا حلزونيًا .. ثم بابًا آخر .. ادخله .. ولسوف تجد الغرفة على يسارك ..

قال الرجل ذو السحابة على عينيه :

- هل حقًا أنت ذاهب ؟

[قالت العجوز : هذه الليلة دون غيرها من ليال !]

قلت له :

- هذا ما جئت لأجله ..

واتجهت إلى الباب .. وإذ فعلت هذا دار الرجل ذو السحابة حول المنضدة ليدنو من النار أكثر .. وحول النار التفوا يرمقوننى بعيونهم الغابرة .. ومن جديد قال أولهم :

- إنه اختيارك الخاص ..

تركت الباب مواربًا حتى أضأت الشمعة ، ثم مشيت عبر الممر البارد الذى يردد أصداء خطواتى ..

لابد هنا من الاعتراف بأن نفسى تأثرت ، برغم

محاولتى للاحتفاظ بمنطقى .. تأثرت بهؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين تركت لهم (الليدى) صاحبة القلعة أملاكها .. تأثرت بالأثاث العتيق .. وغرفة الحارس التى تجمعوا فيها ..

كأن كل هذا يمتّ لعهد سحيق .. عهد كانت فيه الساحرات والتعاويذ أمورًا قابلة للتصديق .. وكانت الأشباح حقًا لا مراء فيه ..، حتى بدا لى الحراس الشيوخ كأنهم أطياف متلاشية تسكن هذا العالم، لكنها لا تشارك فيه ..

كان الممر مغبرًا .. وراح لهب شمعتى يتأرجح ، والظلال على الحائط تهتز .. ورأيت ظلاً يصعد السلم نحوى ، وآخر يطير من فوقى ليذوب فى الظلام ..

توقفت لحظة أصيخ السمع ، ثم - وقد استرحت للصمت المطبق - فتحت الباب أمامى .. ووقفت فى الردهة ..

كان ضياء القمر القادم من شباك ضخم على الممشى؛ يغلف كل شىء بضوئه الفضى .. وكل شىء فى موضعه ، كأنما المكان مهجور بالأمس ، لا من ثمانية عشر شهرًا ..

كانت هناك شموع .. والغبار الذى تراكم على السجادة ، أو على البلاط ، لم يكن مرئيًا فى ضوء

القمر ، لأنه قد تم توزيعه بالتساوى ..، كدت أخطو .. ثم تجمدت ..

بدا لى أن هناك من يقف عند ركن الحائط ، وكأنما ينتظرنى ليقطع علىّ الطريق .. فتحسست الغدارة فى جيبى وتقدمت .. لأجد تمثالاً لنسر وفتاة من البرونز يلتمع فى ضوء القمر ..

أعاد لى هذا الحادث جرأتى .. فلم أعبأ كثيرًا بتمثال من (البورسلين) اهتز رأسه قليلاً عندما مررت به ..

حركت شمعتى لأرى جوانب مدخل الغرفة الحمراء .. لابد أنهم وجدوا سلفى ها هنا .. أصابنى توجس مفاجئ حين تذكرت هذا .. فتحت باب الغرفة فى تردد .. بينما أدير وجهى لأرمق الصمت الشاحب خارجها ..

دخلت .. وأوصدت الباب ورائى ، وأدرت المفتاح فى القفل .. ثم وقفت حاملاً الشمعة أرمق مسرح سهرتى .. الغرفة الحمراء العظمى فى قلعة (لوريان) .. حيث مات الدوق الشاب ..

أو - بالأحرى - حيث بدأ موته .. لأنه فتح الباب .. وتدحرج فوق الدرجات التى ارتقيتها من فورى .. وكانت تلك نهاية سهرته .. نهاية محاولته المجيدة لقهر تقاليد المكان الشبحية ..، غير عالم أنه سيخدم الإيمان بالخرافات إلى أقصى حدّ ممكن .

ثمة قصص أكثر قدمًا حول هذه الغرفة ..

مثل الزوجة الجبانة التى حاول زوجها أن يداعبها ، والنهاية المأساوية التى تلت محاولته إفزاعها ..

رحت أرمق الغرفة بجوانبها المظلمة ، ومضاجعها .. وأدركت جيدًا كيف ولدت الأساطير من هذه الظلمة ..

لقد كانت شمعتى قبسًا واهيًا من نور فى هذا الديجور الممتدّ .. عاجزًا عن الوصول إلى الركن البعيد .. تاركًا محيطًا من الغموض والتساؤلات وراء جزيرة الضوء هذه ...

أزمعت أن أتفحص المكان فورًا .. وأستبعد الخيالات قبل أن تتمكن منى .. ورحت أذرع المكان - بعد ما أوصدت الباب بإحكام .. متفقدًا كل قطعة أثاث .. ومزيحًا كل ستارة لأرى ما وراءها ..

بل إننى تأكدت من أن النوافذ موصدة .. وانحنيت لأتأمل سواد المدفأة من الداخل .. وضربت على كل الألواح الخشبية لأتيقن من ألاّ فتحات سرية هناك ..

كانت هناك مرآتان ، على جانبى كل واحدة شمعتان .. وعلى المنضدة كانت هناك شموع أكثر ..

أضأت كل هذه ..، وكانت الأخشاب معدة فى المدفأة .. وهى عناية غير متوقعة من حارس البيت .. أشعلتها

لألغى شعورى بالقشعريرة ، ثم أدرت ظهرى لها لأعيد تأمل الحجرة ..

جذبت منضدة و(شيزلونج) ووضعتهما أمامى كنوع من المتاريس ، وعلى هذه المنضدة وضعت غدارتى ..

لقد أفادنى تفقدى الحجرة .. إلا أن الركن المظلم القصى من المكان .. بذلك الصمت التام والسكون المخيم عليه ؛ لم يزل يثير خيالاتى ..

لم أجد الراحة فى صوت قرقعة النيران بالمدفأة ..

وذلك الظل عند طرف المضجع بالذات له تلك الخاصية التى لا يمكن التعبير عنها .. خاصية الحضور .. الإيحاء الغامض بشىء حىّ ، الذى يولد بسهولة فى الظلام والوحدة ..

فى النهاية ـ لأطمئن نفسى ـ حملت الشمعة فى يدى ، وسرت إلى هناك لأتأكد من عدم وجود شىء ملموس .. الآن أنا فى حالة لا بأس بها من التوتر العصبى ، برغم أنه لا يوجد سبب كاف لذلك .. إلا أن مخى صاف تمامًا وقادر على التفكير .. قلت لنفسى دون تحفظ إنه لن يحدث شىء خارق للطبيعة .. ورحت أغنى بعض الألحان لتزجية الوقت ..

لكن الصدى لم يكن سارًا على الإطلاق . ولنفس السبب تخليت عن مناقشة بينى وبين نفسى عن استحالة وجود الأشباح ..

كان اللونان الأسود والأحمر يسيطران على الغرفة .. وضايقنى هذا لأنها ـ مع كل تلك الشموع ـ ظلت مظلمة تقريبًا ..

وهنا تذكرت تلكم الشموع التى رأيتها فى الممر .. ففتحت الباب وخرجت من الغرفة .. وفى ضوء القمر عدت بعشر شموع ..

وبدأت أوزعها فى أرجاء الحجرة فى أوعية صينية صغيرة كانت موجودة فى الغرفة بكثرة ، بعض الشموع وضعتها على الأرض .. وبعضها على النافذة .. حتى ـ فى النهاية ـ لم يعد هناك موضع فى الغرفة إلا وقد سقط عليه ضوء ساطع ..

وخطر لى أنه لو جاء الشبح فعلى أن أنذره حتى لا يتعثر فى إحدى هذه الشموع ..

ثمة شىء مبهج ومطمئن للغاية فى هذه الشموع .. إلا أن توقعى للسهرة الطويلة ظل جاثمًا فوقى ..

كان ذلك عند منتصف الليل : حين انطفأت شمعة المضجع فجأة .. وزحف الظل الأسود إلى مكانه عندها .

لم أرها تنطفئ .. فقط أدرت رأسى لأجد الظلام هناك .. كأنما ترفع عينيك لترى غريبا لم تتوقع وجوده جوارك ..

صحت عاليا :

ـ بحق الله !.. يا لها من نسمة قوية !

ومتناولا الثقاب من فوق المنضدة : مشيت عبر الغرفة متراخيا لأعيد إشعال الشمعة ..

لم يشتعل العود الأول .. واشتعل الثانى ، وفجأة شعرت أن شيئا يومض على الحائط أمامى ، فنظرت لأجد الشمعتين على المنضدة الصغيرة جوار المدفأة وقد انطفأتا ...

وثبت على قدمى هاتفا :

ـ عجيب !.. ترانى فعلت ذلك شارد الذهن ؟!

وتراجعت إلى الوراء وأعدت إشعال واحدة ، فبينما أفعل ذلك إذا بشمعة على جانب المرآة تتألق ثم تخبو .. وعلى الفور لحقت بها الشمعة التى على الجانب الآخر .

لا خطأ هنالك .. لقد خبا اللهب كأن الفتيل قد انضغط ما بين أصبع وإبهام .. تاركا الفتيل لا يدخن ولا يحمر .. فقط أسود ..

وهنا تلاشت الشمعة عند قدم الفراش .. وخطا الظل خطوة أخرى نحوى ..!

ـ هذا لن يصلح ..!

عندئذ تلاشت الشمعة فوق التسريحة ..

صحت بصوت مبحوح :

ـ ماذا هنالك ؟

وهنا خبت الشمعة فوق خزانة الثياب .. وتلتها أخرى .. تلك التى أعدت إشعالها عند المضجع ..

ـ اهدأ بالا .. هذه الشموع هامة لى ..

قلت ذلك بصوت نصف هستيرى ، وأنا أضرب رأس العود بعلبة الثقاب .. ويداى ترتجفان .. فما إن أشعلت شمعة التسريحة حتى خبت شمعتان فى طرف النافذة القصى .

أشعلت شمعتى المرآة وشمعة الأرض بعود الثقاب ذاته .. وللحظة خيل إلى أننى هزمت الانطفاء ..

ولكن ـ فجأة ـ خبت أربعة أضواء فى أركان مختلفة من الحجرة .. فأشعلت عود ثقاب آخر فى لهفة ..

وهنا شعرت بأن يدا خفية قد مرت على شمعتين فوق المنضدة ، أطلقت صرخة رعب وشرعت أعيد أشعالهما .

ثمة طريقة أفضل .. وضعت الثقاب على المنضدة ، وأمسكت بحامل شموع .. هكذا أتلافى بطء اشتعال الثقاب.

لكن الانطفاء استمر .. وراحت الأشباح تلاحقنى .. وتكسب أرضا جديدة فى كل مرة .. الظلال ...

بدا لى المشهد كغمامة تمر أمام النجوم .. فجأة يبدو نورها وفجأة يختفى ..

الان أشعر بالهلع من فكرة الظلام القادم .. وقد فقدت كل قدرة على التماسك ..

أجرى من شمعة لأخرى فى صراع معدوم الجدوى ..

أصبت بكدمة فى فخذى من اصطدامى بالمنضدة .. سقطت .. وأسقطت غطاء المائدة فى سقطتى ..

انطفأت الشمعة التى أحملها من أثر حركتى السريعة..

ثم انطفأت آخر شمعتين فى الغرفة ..!

لكن الغرفة لم تظلم تماما .. ثمة ضوء أحمر آت من موضع ما .. المدفأة !

بالتأكيد .. ما زال بوسعى أن أشعل الشمعة من المدفأة ..

ذهب إلى المدفأة حيث اللهب يتراقص بين كتل الفحم .. وهنا تلاشى اللهب دون إبطاء .. وشعرت

بالظلمة تطبق على كانغلاق جفنين .. والتفت حولى فى عناق محكم .. مطبقة على بصرى .. مهشمة آخر بقايا التعقل فى رأسى ..

سقطت الشمعة من يدى .. مددت ذراعى أمامى محاولا - بلا جدوى - أن أبعد هذا السواد عنى .. رفعت صوتى .. صرخت بكل قواى مرة .. مرتين .. ثلاثا ..

أذكر أننى فكرت وقتها فى الردهة التى يغمرها ضوء القمر .. حنيت رأسى وركضت إلى الباب .. عازما على الفرار دون إبطاء ..

لكنى نسيت موقع الباب .. واصطدمت بركن الفراش .. تراجعت مترنحا .. انقلبت .. اصطدمت بقطعة أثاث ..

أذكر بشكل ضبابى ركضى فى الظلام .. صراعى المحموم .. صراخى الوحشى .. ضربة قوية على جبهتى ، وشعور مريع بالسقوط دام قرونا .. محاولتى المجنونة لأقف على قدمى من جديد ..

بعد هذا لا أذكر شيئا ..

* * *

فتحت عينى فى ضوء النهار .. رأسى ملفوف بالضمادات ، بينما الرجل ذو الذراع المتيبس يرمق

وجهى .. نظرت حولى لأتذكر ما حدث .. لكنى لم أستطع ذلك ..

نظرت إلى ركن الحجرة فرأيت العجوز ، تصب بعض قطرات الدواء من قارورة زرقاء صغيرة .. سألتهما :

ـ أين أنا ؟.. إننى أتذكركم ، لكنى لا أتذكر من أنتم ..

حكوا لى كل شىء :

ـ وجدناك عند الفجر والدم يكسو شفتيك وجبهتك ..

بدأت أسترجع ذاكرتى ببطء .. وعاد العجوز يقول :

ـ تراك آمنت الآن أن الغرفة مسكونة ؟

ـ نعم .. الغرفة مسكونة

ـ ورأيت ذلك .. بينما نحن من عشناها طيلة حياتنا لم نره قط .. لأننا لم نجسر قط .. قل لى .. هل هو (الإيرل) العجوز الذى ......؟

ـ لا .. ليس هو ..

قالت العجوز والكأس بيدها :

ـ قلت لك .. إنها تلك الكونتيسة البائسة التى أخافها زو ......

قلت أنا :

ـ ليس هى .. لا يوجد شبح (إيرل) ولا (كونتيسة)

فى الغرفة الحمراء .. لا شبح هناك على الإطلاق .. لكن ما هو أسوأ .. أسوأ بكثير ...

ـ إذن ؟

ـ إنه أسوأ الأشياء التى تسكن البشر الفانين .. ألا وهو الخوف ..!

الخوف الذى لا ضوء له ولا صوت ولا يخضع للعقل .. الخوف !..

الذى يصم ويعمى ويسحق .. لقد تبعنى عبر الممر .. وحاربته فى الغرفة . وعدت إلى الصمت ، وتحسست يدى ضماداتى ..

عندئذ قال الرجل الواقف فى الظل بعد ما تنهد :

ـ نعم .. عرفت أنه كذلك .. قوة الظلام .. إنه يجول هناك أبدا ..

وتشعر به حتى فى ضوء النهار وحتى فى صباح الصيف المشرق .. يختفى وراء الستائر والأبواب .. ويمشى خلفك أينما وجهت وجهك ..

يتبعك عبر الدهاليز فلا تجرؤ على الالتفات .. الخوف .. الخوف الأسود فى حجرتها .. ولسوف يبقى بها ما بقى هذا البيت المفعم بالآثام ..

مارس ١٨٩٦



حقيقة
(بايكرافت)

حقيقة (بايكرافت)

يجلس على مسافة أقل من اثنتى عشرة ياردة منى .. لو نظرت من فوق كتفى لرأيته ، ولو التقت عينى بعينه - وهذا يحدث دائما - يلقانى بتعبير ما ....

إنها أساسا نظرة متوجسة .. لكن الريبة فيها برغم ذلك ..

سحقا لريبته هذه !.. لو أردت أن أفشى سره لفعلت من زمن .. أنا لن أفعل ذلك ، والمفترض أن يشعر بالراحة .. كأن شيئا بهذه البدانة والضخامة يمكن أن يشعر بالراحة .. ثم من يصدقنى لو تكلمت ؟

مسكين يا(بايكرافت) ! كتلة هلامية عملاقة .. أكثر رواد الأندية بدانة فى (لندن) ..

يجلس جوار النار على مائدة صغيرة يلوك شيئا .. ماذا يلوك ؟ إنه يقضم من كعكة مليئة بالزبد ، وعيناه علىّ .

سحقا له !.. ليكن يا (بايكرافت) .. مادمت ستكون وضيعا .. مادمت ستتصرف وكأننى رجل غير شريف .. حسن .. هأنذا أكتب القصة كلها تحت عينيك .. حقيقة (بايكرافت) .

الرجل الذى عاونته .. الرجل الذى داريته .. الرجل الذى جعل جلسة النادى غير محتملة بالحاحه على (لا تقل) كلما نظر إلىّ ..

ثم - إلى جانب هذا - لماذا يصر على التهام الطعام للأبد ؟

ها هى ذى الحقيقة .. كل الحقيقة .. ولا شىء غير الحقيقية !

عرفت (بايكرافت) فى قاعة التدخين هذه .. كنت عضوا صغير السن عصبيًا .. وجاءنى إذ جلست وحدى .. كتلة متدحرجة هائلة من كرشه ولغده .. جلس جوارى على مقعد ولهث قليلا ثم أشعل سيجارا وبدأ يتكلم ..

لا أذكر ما قاله بالضبط .. شيئا عن أعواد الثقاب التى لا تشتعل جيدا .. ثم راح يثرثر ، ومن حين لآخر يستوقف النادل ليقول له شيئا عن أعواد الثقاب بصوته الرفيع المنغم ...

ثم إنه بدأ يتحدث عن الألعاب الرياضية .. فقال لى :

- لابد أنك تجيد (الكريكيت) ..

أعرف أننى نحيل .. بل أنا أقرب إلى الهزال الشديد .. دعك من أننى أسمر .. لا أخجل من أن لى

جدة هندية ، لكننى لا أرحب بأن ينظر الغرباء إلى وجهى فيروها ..

لكنه كان يتحدث عنى ليصل إلى نفسه ..

قال لى :

- أعتقد أنك لا تمارس الرياضة أكثر منى .. ولا تأكل أقل (ككل مفرطى البدانة كان يحسب أنه لا يأكل) ..

ثم ابتسم .. وأردف :

- برغم هذا .. نحن مختلفان

ثم راح يتكلم عن بدانته .. كل ما فعل من أجل بدانته .. وكل ما سيفعله من أجل بدانته .. ما نصحه به الناس من أجل بدانته .. وما سمع أن الناس يفعلون من أجل بدانتهم ..

كان حديثًا مملاً .. وشعرت بأننى أنتفخ لسماعه ..

ويوما بعد يوم لم أعد أطيق المزيد .. راح يطاردنى فى إلحاح .. ما إن يرانى فى النادى .. كأنه يعرف ويثق بأننى (أستطيع) وكأن هناك فرصة أمثلها له ولا يتيحها سواى ..

إلى أن جاء اليوم الذى طرق فيه الموضوع :

- إن علم الصيدلة الغربى ليس هو الكلمة الأخيرة فى الطب .. يقال إن الشرق ....

وبتر كلماته ونظر لى ..

فأصابنى الغضب منه ، وقد عرفت أن حدسى كان صادقًا :

ـ قل لى .. من حدثك عن وصفات جدتى ؟!

غمغم فى حرج :

ـ حسن !

ـ فى كل مرة التقينا فيها طيلة الأسبوع ، شعرت أنك تلمح إلى سرّى هذا ..

ـ حسن !..

لقد انكشف الأمر .. هو كذلك .. عرفتُ السر من ....

ـ من (باتيسون) ؟!

ـ بشكل غير مباشر .. نعم .

قلت وأنا أعرف أنه يكذب :

ـ لقد تناول (باتيسون) المادة على مسئوليته الخاصة .

وأضفت :

ـ وصفات جدتى هذه هى أشياء غامضة .. وقد كاد أبى ينتزع منى وعدًا بألا أتحدث عنها ..

الآن صار (بايكرافت) عليمًا بأن لى سرًا .. وأنه يستطيع التمادى .. وكنت أنا قد سئمته تماما حتى أننى

قلت لنفسى : ليكن .. دعه يجرب بنفسه !.. يجب أن أعترف هنا بأننى كنت أشك فى هذه الوصفات تماما من ناحية الأمن ....

لكننى فى تلك الأمسية أخرجت من خزانتى ذلك الصندوق الخشبى غريب الرائحة ، وفتحته .. كان يحوى وصفات جدتى ..

لابد أن من كتب هذه الوصفات لجدتى كان مولعا باستعمال الجلود المختلفة .. وخطه كان رديئا إلى أقصى درجة ، عجزت عن قراءة بعض الأجزاء برغم أن أسرتى ظلت ملمة باللغة الهندوستانية من جيل لجيل .. أخيرا وجدت الوصفة التى كنت أبحث عنها ، فجلست على الأرض أطالعها ..

وفى اليوم التالى قلت لـ (بايكرافت) :

ـ انظر هنا !

وانتزعت القصاصة من قبضته الملهوفة .. وأردفت :

ـ على قدر فهمى .. هذه وصفة لفقدان الوزن (وهنا تأوه (بايكرافت)) .. لكنى لست واثقا من ذلك .. وإذا أخذت بنصيحتى : دعها وشأنها ..

ـ دعنى أجربها ..

ناولتـه قطعــة الجلد طالبا وعدا منه بأن يكف عن الكلام عن بدانته المقززة مهما كانت النتائج .. فنظر لها فى دهشة .. ثم هتف :

- لكنها .. لكنها .....

فقد أدرك أنها لم تكتب بالإنجليزية ..

- سأحاول ترجمتها لك ..

وحاولت جهدى .. وبعدها لم نتبادل الحديث لمدة أسبوعين .. وكلما دنا منى ليتكلم قطبت فى وجهه وأشير له بالابتعاد ...

فى نهاية الأسبوعين جاءنى بدينا كما كان .. ليقول لى :

- يجب أن أتكلم .. هذا ليس عدلا .. إن الوصفة لم تجد نفعا ..

- أين الوصفة ؟

فأخرجها من بين طيات كتابه .. وجريت بعينى بين سطورها :

- هل كانت البيضة فاسدة ؟

- لا .. هل كان هذا ضروريا لنجاح الوصفة ؟!

هذه هى طريقة جدتى العزيزة فى كتابة الوصفات ..

إن لم تحدد الطريقة فعليك افتراض الأسوأ .. كانت إما باترة فى عملها .. أولا تفعله أبدا .. هل حصلت على سم حية الجرس طازجا ؟

- أحضر لى (جامراتش) واحدة .. إنها باهظة الثمن ..

- تلك مشكلتك أنت ..

ومر شهر على هذا ، ظللت أثناءه أرى (بايكرافت) فى النادى .. بدينا .. قلقا .. كما كان دوما ... وظل صامتا محافظا على عهده إلى أن انفجر قائلا :

- إن جدتك هذه ......

- ولا كلمة فى حقها !

ظننته قد قنط من المحاولة .. إلى أن وجدت — على غير توقع - برقية تصلنى ذات يوم ..

- مستر (فورمالين) !

قالها بائع الجرائد الصغير .. وناولنى البرقية ، ففتحتها فورا ..

بحق السماء تعال فورا - (بايكرافت) ..

همم !.. لكى أكون صادقا أقول إننى سررت بأن وصفات جدتى قد عادت إلى مجدها القديم .. ولهذا رحت ألتهم غدائى بشهية ..

بحثت عن عنوان (بايكرافت) لدى ساقى القاعة ، وعرفت أنه يقطن الجزء العلوى من منزل فى (بلومسبرى) .. لهذا ذهبت هناك بمجرد أن فرغت من قهوتى .. فلم انتظر حتى أفرغ من تدخين السيجار ..

وعلى الباب الخارجى صحت :

- مستر (بايكرافت) ؟

كان الجيرة يعتقدون أنه مريض .. فهو لم يفارق حجرته منذ يومين .. دعونى للصعود .. فصعدت .. وقرعت جرس الباب .. فرأيت امرأة ذات وجه مذعور تهرع إلىَ قبل أن ينفتح الباب ..

قالت لى :

- طلب أن نسمح لك بالدخول لو جئت .

ثم أضافت فى ثقة :

- إنه حبيس بالداخل يا سيد !

- حبيس ؟

- منذ صباح الأمس حبس نفسه .. ولم يدع أحدًا يدخل .. ولم يكف عن السباب لحظة ..!

- ماذا جرى ؟

- لايكف عن الأكل.. طلب كثيرًا من الحلوى .. والسجق

والبودنج .. والخبز .. لم يكف لحظة .. شىء مريع !

وهنا صدرت جلبة من داخل الحجرة :

- أهذا (فورمالين) ؟

قرعت الباب وصحت :

- أهذا أنت يا (بايكرافت) ؟

- قل لها أن تنصرف !

وفعلت كما قال ..

شعرت بصوت غريب وراء الباب كأنما هناك من يتحسس بحثًا عن المقبض فى الظلام .. وسمعت لهاثه .

ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب .. وصوت (بايكرافت) يدعونى للدخول .. فأدرت المقبض وفتحت الباب .. وبالطبع توقعت أن أرى (بايكرافت) .. لم يكن هناك !

غرفة الجلوس فى حالة فوضى مروعة .. أطباق مبعثرة بين الكتب وأدوات الكتابة .. ومقاعد مقلوبة .. لكن أين هو ؟

- حسن أيها العجوز .. أغلق الباب ..

سمعتها .. وعندئذ عرفت أين هو ..

كان هناك .. فوق الباب .. كأنما هناك من طلاه

بالصمغ وألصقه هناك .. وجهه ملىء بالرعب والغضب .. وكان يلهث ..

- أغلق الباب .. فلو أن المرأة رأت شيئا .....

قلت له :

- لو أنك سقطت لهشمت عنقك يا (بايكرافت) .

- ليت هذا يحدث ..

- أرجل فى سنك ووزنك يمارس هذه البهلوانيات الصبيانية ؟

- سأخبرك بالأمر ..

وهنا أدركت فجأة أنه لا يمسك بشىء .. أدركت أنه يطفو هناك كمثانة حيوان ملأى بالغاز ..!

كان يبذل مجهودًا محمومًا ليبتعد عن السقف ، وينزل على الحائط إلىّ .. وراح يلهث ويقول :

- إنها تلك الوصفة .. جدتك الـ ...

وأمسك - دون حذر - بإطار لوحة معلقة وهو يتكلم .. فأفلتت من يده ، وعاد يطير إلى السقف .. على حين هوت الصورة متهشمة على الأرض ..

حاول من جديد بحذر حتى بدأ يهبط نحو رف المدفأة . كان مشهدًا غير عادى .. هذا الرجل الضخم البادن

المحتقن مقلوب رأسا على عقب ، ويحاول النزول إلى الأرض ..

- كانت وصفتك ناجحة حقًا !

- كيف ؟

- فقدان الوزن .. حرفيًا !

وهنا فهمت ما حدث ..

- بحق السماء يا (بايكرافت) .. كنت تبحث عن علاج للسمنة ، لكنك كنت تسميها (وزنا) ..

وشعرت بسرور بالغ .. بل شعرت بأننى بدأت أحب (بايكرافت) ..

فقلت له :

- دعنى أساعدك ..

وجذبت ذراعه .. فراح يركل بقدميه محاولاً أن يلمس بهما شيئًا ما ، حتى شعرت كأنما أحمل علمًا فى يوم عاصف ..

قال لى مشيرًا :

- هذه المنضدة .. هى من خشب (الماهوجنى) الثقيل .. لو أنك استطعت أن تحشرنى تحتها ..

وفعلت .. فقبع تحت المنضدة كبالون أسير .. فى حين وقفت على السجادة وتحدثت معه مشعلاً سيجارًا :

ـ قل لى .. ماذا حدث ؟ ..

ـ أخذتها !

ـ وكيف كان مذاقها ؟

ـ أوه !.. شنيع ..

كان يجب أن أخمن أن جميعها شنيع .. سواء نظرنا إلى المكونات أو النتائج .. كل وصفات جدتى تبدو لى غير مشجعة ..

شربت جرعة أولاً فشعرت بعد ساعة أننى أخف .. من ثم شربت الوعاء كله .. أغلقت أنفى وشربت .. وشعرت بأننى أصير أقل .. أقل وزنًا ..

ثم صاح بانفعال :

ـ ماذا عساى فاعل بحق السماء ؟

ـ ثمة شىء واحد مؤكد ولا يجب أن تفعله .. لو غادرت هذا المبنى .. سترتفع لأعلى وأعلى إلى مالا نهاية ..

ـ ربما يزول مفعول الوصفة بعد قليل ؟

هززت رأسى :

ـ لا تعتمد على ذلك ..

وهنا ركل الكراسى ولكم الأرض .. تصرف كما يفعل

أى رجل بدين يحترم نفسه حين يمر بظروف عسيرة .. أعنى أنه تصرف بفظاظة .. راح يتكلم عنى وعن جدتى بتحقير شديد ، فقلت :

ـ أنا لم أطلب منك أن تأخذ الوصفة .

ومتناسيًا إهاناته بكرم نفسى ، جلست على المقعد ، ورحت أكلمه بلطف وحنان .... قلت له إنه هو من جلب هذه الكارثة لنفسه .. وإننى أجد فيها نوعًا من العدالة الشعرية ..

ـ والآن .. ارتكبت خطيئة عدم الدقة .. ولم تسمّ (الدهن) باسمه بل سميته (وزنًا) ..

ثم اقترحت عليه أن يكيف نفسه حسب الوضع الجديد ، ولن يكون عسيرًا عليه أن يمشى على السقف باستخدام يديه ..

ـ لا أستطيع النوم ..

لكن هذه ليست مشكلة .. من الممكن أن يدخل تحت (ناموسية) يثبتها إلى ما تحتها بشرائط لاصقة ، ويثبت الملاءة والبطانية بأزرار .. يجب عليه أن يثق بمديرة المنزل .. فوافق بعد جدل .. (بعد هذا كان من الطريف أن نجد أن المرأة تعاملت مع الأمر بواقعية جميلة) ..

اقترحت عليه كذلك أن يضع سلم مكتبه فى غرفته .. حيث توضع كل وجباته فوق المكتبة .. لتكون فى متناول يده ..

أما عن النزول للأرض فكان الحلَ العبقرى هو أن يمسك بعض أجزاء من دائرة المعارف البريطانية (الطبعة العاشرة) .. من ثَمّ يهبط إلى أسفل بسلاسة مطلقة ..

كنت متحمسًا للأمر .. لهذا أخبرت مديرة المنزل بالأمر بنفسى وأعددت فراشه المقلوب ..

بالواقع قضيت يومين كاملين فى شقة الرجل .. فأنا أجيد الأشغال المنزلية ، لهذا فعلت كل الاختراعات العبقرية الممكنة .. جعلت مفاتيح النور الكهربى تفتح لأعلى بدلاً من أسفل .. أطلت له سلك الجرس .. الخ ..

كنت سعيدًا بفكرة أن (بايكرافت) قد صار ذبابة عملاقة تزحف على السقف ، ومن غرفة لأخرى .. وأنه لن يعود للنادى أبدًا ..

لكن عبقريتى - كما تعلمون - انتصرت علىّ

كنت جالسًا عنده جوار المدفأة .. بينما كان هو يثبت سجادة تركية فى السقف حين خطرت لى الفكرة :

- بحق السماء !.. كلُ هذا ليس ضروريًا يا (بايكرافت) !

وشرحت له فكرتى قبل أن أفكر فى تبعاتها :

- كل ما عليك هو ارتداء ثياب داخلية من الرصاص !

وأردفت :

- اشترِ رصاصًا واصنع منه أقراصًا .. وثَبِّتْ هذه الأقراص فوق ثيابك الداخلية .. ارتدِ حذاءً مبطنًا بالرصاص .. احمل حقيبة ملأى بالرصاص .. ولسوف ينتهى الأمر !.. لن تكون سجينًا بعد اليوم ..

وخطرت لى فكرة أكثر جاذبية :

- لن تحتاج أبدًا لأن تخاف من غرق السفن .. لو حدث هذا لك فكل ما عليك هو انتزاع ثيابك الداخلية .. بعضها أو كلها .. عندئذ تحلق إلى عنان السماء ..

فى غمرة حماسته ألقى المطرقة على مقربة من رأسى .. وهتف :

- يا للسعادة !.. يمكننى أن أعود إلى النادى !

احتبس الهواء فى حلقى .. وقلت بصوت خافت :

- نعم .. يمكنك ذلك ..

وفعل ذلك .....

ومازال يفعله ...

يجلس خلفى الآن يمضغ ـ طيلة حياتى ! ـ قطعة ثالثة من الكعك بالزبد ، ولا أحد فى العالم كله ـ ما عداى ـ يعرف أنه لا يزن بالفعل شيئـا .. إنه كتلة مملة من المادة معدومة الكتلة .. مجرد سحابة ترتدى الثياب .. أكثر الرجال تفاهة ...

هناك يجلس يرقبنى حتى أفرغ من كتابتى .. بعدها سيأتى إلىّ .. سيخبرنى بالقصة كلها من جديد .. وما يشعر به .. وما لا يشعر بـه .. ودائمـا فى وسط هذا الخطاب الوافر ، يقول لى :

ـ (السر فى بير) ؟.. أليس كذلك ؟.. لو عرف أحد بالأمر لجللنى العار .. إنه لمما يشين المرء ـ كما تعلم ـ أن يزحف على السقف .. وكل هذه الأمور ....

والآن حان وقت التملص من (بـايكرافت) ، الـذى يحتلّ ـ كدأبه ـ موضعًا استراتيجيًا بين الباب وبينى .

أبريل ١٩٠٣

* * *



إمبراطورية النمل

إمبراطورية النمل

حين تلقى القبطان (جيريلو) تعليماته بأن يأخذ قارب المدفعية الخاص به ، ويتجه إلى (باداما) على ذراع (باتيمو) من نهر (جوارامادیما) ، ليساعد السكان هناك فى مكافحة وباء النمل ...

حين تلقى هذه التعليمات شك فى أن السلطات تسخر منه ..

كانت ترقياته استثنائية ، معتمدة على نفوذ سيدة برازيلية مرموقة وقعت فى غرام عينيه الساحرتين ، وقد كثرت التعليقات غير المهذبة من حوله .. وأحس أنه مقبل على المزيد من المشاكل ..

كان مفهومه للإتيكيت والنظام مفهومًا برتغاليًا صميمًا .. ولم يفتح قلبه إلا لـ (هولرويد) المهندس الإنجليزى الذى يعمل على القارب ، وعلى سبيل التدريب على الإنجليزية لدى القبطان ، خاصة أنه لم يستطع قط إجادة نطق حرفى (الزاى) و (الذال)(*) .

(*) كل أمريكا الجنوبية تتحدث الأسبانية ، عدا (البرازيل) فتتحدث البرتغالية .

قال للمهندس :

ـ واضح أنهم يحاولون تسفيهى .. ماذا بوسع الإنسان أن يفعل مع النمل ؟.. إنها تجىء .. وتذهب .

قال (هولرويد) :

ـ يقال إن هذه لا تذهب .. هذا الشاب الذى تسميه (سامبو) .

ـ (دامبو) .. إنه نوع من الدم الخليط ..

ـ هذا الشاب يقول إن الناس يرحلون ..

دخن القبطان غليونه فى تململ .. وقال :

ـ هده الأشياء تحدث دائمًا .. كان هناك وباء من النمل الذى يحمل أوراق الشجر فى (ترينداد) .. (نضف) ثمار المانجو .. (ومادا) فى (دلك) ؟.. أحيانًا يهاجم النمل (مندلك) .. نمل محارب !.. عندئذ تترك (المندل) لهم (لينضقوه) .. ثم تعود لمندلك لتجد كل شىء (نضيفا) .. لا صراصير .. لا فئران .. لا براغيث..

ـ يقول هذا الشاب (السامبو) إن هذا النمل مختلف .

هز القبطان كتفيه .. وواصل التدخين .

بعد قليل تساءل :

ـ (عديدى) (أولرويد) .. (مادا) عساى فاعلاً مع هذا النمل الشيطانى ؟

وعند الظهر ارتدى ثيابه كاملة ، ونزل إلى الشاطئ ... ثم جاءت صناديق عدة إلى ظهر القارب .. ومعها عاد هو ...

كانت ستة أيام قد مرت عليهم فى نهر (الأمازون) .. على بعد مئات الأميال من المحيط .،. ماء النهر يجرى طيلة الوقت مليئًا بالقاذورات والتماسيح والطيور الحائمة .. ويصب فيه معين لا ينضب من جذوع الأشجار ..

وفى المساء جلس (هولرويد) يرقب مدينة (ألمكوير) بكنيستها العتيقة .. وبيوتها .. كأنها شىء صغير ضائع فى وحشية الطبيعة .. كأنها قطعة عملة فى الصحراء ..

كان شابًا حديث السن .. وتلك أول مرة يرى فيها المنطقة الاستوائية .،. لقد جاء من (انجلترا) حيث تم إخضاع الطبيعة لقهر الحضارة ؛ ليكتشف هنا فجأة وهن الإنسان ..

لمدة ستة أيام ظلوا يحرون فى النهر .. حيث الإنسان نادر كفراشة غريبة .. ربما رأيت قاربًا بدائيًا اليوم .. ثم محطة بعيدة بعد يومين ، إن الإنسان لحيوان

نادر لا يملك أية سيطرة على عالمه .. ولا تكاد تراه فى هذه الأصقاع .

بعد يومين نزل إلى (باتيمو) مع قائده .. كان الأول عاكفا على تعلم الأسبانية .. لكنه ما زال فى مرحلة الفعل المضارع وإلغاء الضمائر .. ولم يكن هناك من يتكلم بعض الإنجليزية إلا بحار زنجى .. وكان يستخدمها بطريقة خاطئة تماما ..

كان هناك رجل برتغالى يدعى (داكونا) يتحدث الفرنسية .. لكنها فرنسية مختلفة عن تلك التى تعلمها (هولرويد) فى (ساوث بورت) ، ولذا اقتصرت محادثتهما على التحيات وحديث الطقس ..

وككل شىء فى هذا العالم لم يكن الطقس مرحبًا ببنى البشر .. كان حارًا فى النهار ، حارًا فى الليل .. وحتى الريح الحارة تحمل رائحة النباتات المتحللة .. والتماسيح .. والطيور .. والذباب .. والنمل .. والخنافس .. والثعابين ..

وبدت القرود كأنما تتساءل عن سبب مجىء الإنسان إلى هذا المناخ ، الذى لا تحمل شمسه بهجة .. ولا يحمل ظلامه ترطيبًا ..

ارتداء ثيابك لا يطاق .. بينما انتزاعها معناه أن تمنح البعوض هدية لا تعوض ..

البقاء فى جوف القارب يعنى الاختناق .. بينما الصعود إلى ظهره يعنى أن يعميك الوهج الشمسى ..

وللأسف غدا القبطان - الذى كان سلوى (هولرويد) الوحيدة - مثيرًا للسأم إلى حد لا يوصف ، كلما حكى غرامياته .. سلسلة لاتنتهى من النساء كحبات الخرز فى عقد .

أحيانًا كانا يغادران القارب ليحضرا حفلات صاخبة ، ويرقصا مع فتيات (الكريولى) اللواتى وجدن فى لغة (هولرويد) الأسبانية - الخالية من الضمائر والفعل الماضى - ما يكفى لأغراضهن ..

كانت هذه لحظات عابرة فى رحلة القارب المضنية ..

لكن (جيريلو) بدأ يتعلم أكثر فأكثر عن النمل خلال هذه الرحلة ..

وقال لصديقه بلهجته المهشمة :

- هو نوع جديد من النمل .. لابد لنا أن نكون - ماذا تسمونه ؟ - علماء حشرات .. خمس سنتيمترات فى الطول !.. يا للسخف !.. لكنه يأكل البلد كلها ..

وقرع على ركبته وأضاف :

- أولئك القوم فى المرقص .. لقد هربوا من هناك .. فقدوا كل ما يملكون .. النمل (دار) بيوتهم بعد (الضُهر) .. الكل جرى .. لو بقيت لأكلك النمل أترى ؟ حاول أحدهم أن يعود لداره ليرى هل رحل النمل .. لكن النمل كان (ينتضره) !

- هل هاجمه ؟

- عضّه .. خرج من داره يصرخ ويركض إلى النهر .. أترى ؟ وفى المساء يموت .. كأنما لدغه ثعبان !

- هل تعنى أن النمل كان سامًا ؟

هزّ القبطان كتفيه :

- من يدرى ؟.. حين دخلت الخدمة دخلتها لأحارب رجالاً .. لا هذه الأشياء .. هذا النمل .. يأتى ويذهب .. هذا ليس عملى ..

وفى الأيام التالية بدأ (هولرويد) ـ الذى تحسنت لغته نوعًا ـ يسمع هذه اللفظة أكثر فأكثر : (سوبيا) .. وعرف أنها تحكم هذا العالم .. إذن فهذه اللفظة تعنى النمل ..

لقد بدأ التوتر يغزو النفوس ..

كفّ القبطان عن حكاياته المملة ، أما الملازم البرتغالى

فراح يحكى لـ (هولرويد) عن النمل .. عن الشغالات اللواتى يعملن ويحاربن .. والملكة التى تحكم .. وعن المحاربات اللواتى يصعدن إلى العنق ليجرحن ويدمين ...

حكى له كيف يقطع النمل أوراق الشجر .. وكيف رأى أعشاشًا له فى (كاراكاس) يبلغ اتساعها مائة ياردة .

ثم دارت مناقشة حامية بين الرجال الثلاثة حول ما إذا كانت للنمل عينان .. قرر (هولرويد) ـ بعد يومين ـ أن يحسمها بالنزول إلى الساحل ليصطاد نملة .. وعاد بأنواع كثيرة من النمل بعضها له عينان واضحتان وبعضها بدونها ..

عندئذ راحت المناقشة تدور حول : هل النمل يلدغ أم يعض ؟

قال القبطان :

- هذا النمل له عينان كبيرتان .. إنه (يدحف) إلى الأركان ليراقب ما تفعله ..

- وهل يلدغ ؟

- نعم .. ولدغته سامة ..

ثم أضاف متأملاً :

- (هدا) النمل .. إنه يأتى (ويدهب) .. ماذا فى وسع الإنسان عمله ؟

* * *

عند (تاماندو) يمتد ساحل طويل على ثمانين ميلا .

رسا قارب المدفعية (بنيامين كونستانت) فى ظل الأشجار .. وعلى ظهره جلس القبطان و (هولرويد) يدخنان .. ويستمتعان بالهواء الرطيب الذى يشعران به للمرة الأولى منذ أيام ..

كان مخ (جيريلو) مليئا بالنمل .. لذا تمدد فوق سطح القارب ..

وكان آخر ما قاله فى يأس هو :

- (مادا) أفعل مع النمل ؟.. (هدا) سخف !

بقى (هولرويد) يحك معصميه .. ويتأمل ..

نقل عينيه إلى ضفة النهر .. حيث الغابة بغموضها تنيرها من حين لآخر ذبابة مضيئة .. ويدوى فى جوها صوت نشاطات غامضة تجرى بها ..

كان يعرف أن السماء خالية من البشر .. مساحة شاسعة من الخواء .. ويعرف أن المحيط هائل غير قابل للترويض ؛ لكنه فى (انجلترا) تعلم أن البرّ هو

ملك خاص للإنسان .. حتى فى أطلس الجغرافيا كان يرى البرّ ملونا كأنما يؤكد حق الإنسان فيه .. على النقيض من لون البحر الأزرق المستقل الممتد ..

وكان يؤمن وقتها أن يد الإنسان ستمتد بالزراعة والمحاريث والضوء الكهربائى والطرق والترام ، إلى كل بقعة فى هذه الأرض ..

لكنه الآن يشك فى هذا ..

هذه الغابة بلا نهاية .. ومن المؤكد أنها لا تقهر .. وليس الإنسان سوى متطفل أحمق عليها ..

إنها من حق الزواحف والطيور والحشرات التى تعيش فيها كأنما فى دارها .. بينما الإنسان عليه أن يقاوم الأشجار المتشابكة والوحوش .. ويقع فريسة للثعابين والضوارى والحمى .. ثمة أماكن يدعونها (كاسا) ليس من حق الإنسان أن يدخلها أبدا ..

والسادة الحقيقيون هنا هم (البوما) و (الجاجوار) .

لقد استطاع الإنسان - عبر آلاف السنين - أن يعبر من البربرية إلى التحضر ، حتى شعر أنه سيد الأرض .. لكن ما الذى منع النمل من الشىء ذاته ؟.. إن النمل يملك لغة وذكاء .. فلماذا يتوقف عند عصور البربرية إذا كان الإنسان لم يتوقف ؟!..

كانت الغابة باردة .. وحول المصباح المعلق كانت حشرة ما تئزّ باستمرار .. وتحرك القبطان فى الظلام وتنهد :

- (مادا) بوسعى أن أفعل ؟

وعاد إلى النوم .. فخرج (هولرويد) من دوامة تأملاته ..

* * *

فى الصباحِ التالى عرف (هولرويد) أنهم على بعد أربعين ميلاً من (باداما) ، وازداد اهتمامه بضفة النهر ..

كلما سنحت فرصة كان يغادر المكان ليتفقد الموجودات .. لم ير علامة تشير إلى وجود بشر سوى القبة الخضراء لدير (موجو) المهجور .. الذى سكنت الزواحف العملاقة فيه ..

وفى السماء حلقت أسراب من فراشات صفراء غامضة لها أجنحة شفافة ..

وعند الظهر وجدوا السفينة (كوبرتا) ..

لم تبد فى البداية كسفينة .. كانت أشرعتها تتدلى مرتخية فى صمت الظهيرة .. وثمة شبح رجل جالس جوار الدفة ..

وكان هناك رجل آخر نائمًا على عرق خشبى فى منتصف القارب .. نائمًا على وجهه ، لكن كان واضحًا من الطريقة التى تسبح بها الـ (كوبرتا) حتى كادت تصطدم بهم ، أن شيئًا ما ليس على ما يرام ..

مسح (جيريلو) سطحها بمنظار الميدان .. وازداد اهتمامًا بالظلام الذى يكسو وجه الرجل الجالس .. رجل أحمر الوجه وبدون أنف .. منحن أكثر منه جالسًا .. كلما نظر إليه القبطان أكثر كلما أراد ألا يراه .. وكلما عجزِ عن إبعاد المنظار عنه ..

نهض ليحيى (كيوبرتا) .. حياها مرتين .. لكنها مرت به مبتعدة .. فما إن صارت بجوارهم حتى تهاوى جسد الرجل المنحنى .. كأنما تخلت عنه مفاصله فجأة .

سقطت قبعته عنه .. ولم يكن وجهه من الأشياء التى تسرّ الناظرين ..

أطلق القبطان سبة .. وصاح فى (هولرويد) :

- هل رأيت (هدا) ؟

- ميت !.. أرى أن ترسل من يصعد للسطح .. ثمة شىء ما خطأ ..

- هل .. هل رأيت وجهه ؟

ـ كيف يبدو ؟

ـ كان .. يع !.. لا أجد كلمات ..

ثم أدار ظهره وراح يصدر تعليمات صارمة للرجال .

وعلى الفور تم إنزال مركب صغير به الملازم (داكونا) وثلاثة ملاحين .. وتحرك المركب قاصدًا الـ (كوبرتا) ، ليصعد الرجال إلى سطحها ..

واستطاع (هولرويد) من مكانه أن يدرك أن طاقم السفينة لم يكن سوى هذين الرجلين .. لم ير وجهيهما لكنه رأى أيديهما الممدودة بما عليها من لحم متآكل .. كأنما خضع لعملية تحلل غير مألوفة ، وحين دقق البصر أكثر .. رأى أن هناك بقعًا سوداء متحركة فى منتصف القارب ....!

كلها تتحرك فى اتجاهات مبتعدة عن الرجلين .. كأنها ـ لمعت الخاطرة فى ذهنه ـ جماهير تنصرف بعد مشاهدة مصارعة الثيران ..

ـ كابو (*) ـ نادى القبطان ـ هلا قمت بتوجيه منظارك إلى هذا الصارى ؟

(*) كابتن بالبرتغالية .

ناوله (جيريلو) المنظار .. وغمغم بشىء ما ..

بعد هنيهة من الفحص صاح الإنجليزى :

ـ إنه النمل !..

وأعاد المنظار لقبطانه .. وهنا ظهر رأس الملازم (داكونا) على جانب السفينة .. فصاح القبطان به :

ـ اصعد إلى ظهرها !

قال الملازم إنه لا يستطيع .. لأن المكان ملىء بالنمل .

ـ إن حذاءك ذو رقبة ..

حاول الملازم تغيير الموضوع .. فتساءل :

ـ كيف هلك هذان ؟

انطلق القبطان يزأر بسباب برتغالى معقد جداً .. ودار الشجار بين الرجلين ، فى حين تناول (هولرويد) المنظار وعاود تأمل النمل .. لقد وصفه لى بدقة شديدة فيما بعد ..

قال إنه كان كبيرًا جداً .. أسود اللون .. ويتحرك بتصميم يختلف عن الهرج الآلى للنمل العادى .. وكان بعضه يقف على قدميه الخلفيتين كأنما تعلم الاستفادة من قدميه الأماميتين ..

وضع المنظار بحدة .. وقد تبين أن موضوع النظام بين القبطان وجنديه قد صار حرجاً .

هتف القبطان :

ـ هذا واجبك .. يجب أن تصعد ..

وبدا أن الملازم على شفا العصيان الصريح ..

قال (هولرويد) بالإنجليزية :

ـ أعتقد أن هذين الرجلين قتلهما النمل ..

لكن القبطان لم يردّ .. وواصل الصراخ فى ضابطه المذعور :

ـ آمرك أن تصعد .. ولو لم تفعل سأعتبره تمرداً .. تمردًا وجبناً ..! سأضعك فى الأصفاد .. وسُيطلق عليك الرصاص ككلب ..

كان يسبّ ويلعن ويضرب الهواء بقبضته ، بينما الملازم يرمقه شاحبًا صامتًا .. وأفراد الطاقم ينظرون لهما ذاهلين ..

وفجأة .. اتخذ الملازم قراره .. وصعد إلى سطح (كيوبرتا) ..

ـ آه !.

وساد الصمت .. على حين رأى (هولرويد) النمل يتراجع مبتعدًا عن حذائى (داكونا) .. اتجه البرتغالى نحو الرجل الممدّد على وجهه ..

وبتردد قلبه على ظهره ..

اندفع سرب من النمل من جسد الرجل .. فتراجع (داكونا) للوراء .. وركل الأرض مرة أو اثنتين ..

رأى (هولرويد) النمل حول قدمى الملازم ، يقوم بما لم ير نملاً يقوم به من قبل .. كان ينظر إلى الدخيل ! كأن حشدًا من الناس يرمق عملاقاً يقف بينهم ..

ـ ماذا عندك ؟

صاح القبطان فى ملازمه .. فمشى هذا بضع خطوات ثم راح يفسر ما يراه بالبرتغالية .. ثم توقف وركل شيئًا بقدمه .. ثم هرع إلى جانب المركب .. توقف .. عاد يمشى نحو الرجل الآخر .. أصدر أنّةً عالية .. ثم مشى نحو القمرة ..

عاد يتحدث مع قبطانه .. كلا الرجلين مهذب متمالك نفسه بعد كل الصراخ والإهانات السابقة .. ولم يفهم (هولرويد) سوى أشلاء من الحوار ..

استعمل منظار الميدان ليفاجأ بأن النمل قد رحل عن أجزاء السطح ، نظر نحو الظلال تحت السطح .. وخطر له أنها ملأى بعيون تراقبه ..

وتقرر أن يقوم الرجال بربط الـ (كوبرتا) لجرّها

خلف (بنيامين) .. فقد كانت تعج بالنمل بحيث يصعب أن يقودها أحد ..

وبمنظاره المقرب بدأ يشعر بأن هناك نشاطًا أكثر من اللازم يجرى فوق الـ (كوبرتا) ..

كان هناك نمل عملاق ـ طول الواحدة بوصتان ـ يتحرك من نقطة مظلمة إلى أخرى .. بعضه كان يتدارى تحت ثياب الموتى .. وبعضه يتحشد فى شكل سرب على جانب القارب ، الذى سيمشى عليه (داكونا) حتمًا ..

لم ير النمل ينقض على الملازم .. لكنه لم يشك فى أنه فعل ذلك ..

فجأة إذا بالملازم يصرخ .. ويلعن .. ويضرب قدميه .

ـ لقد لُدغت !

قالها وهو ينظر نظرة مقت واتهام نحو (جيريلو) .

ثم سقط من على الجانب .. ليسقط فى قاربه .. ثم يتدحرج إلى الماء حتى سمع (هولرويد) صوت ارتطامه به ..

جذبه الرجال الثلاثة إلى ظهر القارب ..

وفى نفس الليلة قضى نحبه ...

* * *

خرج (هولرويد) والقبطان من القمرة التى رقد بها الجسد المنتفخ للملازم ، ووقفا عند مؤخرة السفينة يرمقان المركب التى تجرها سفينتهم ..

كانت أمسية حالكة السواد .. وبدت الـ (كوبرتا) مثلثًا مظلمًا يتأرجح فى الماء .. ويهتز شراعها ...

كان عقل (جيريلو) يفكر فى الأشياء غير الطيبة التى قالها الملازم فى سكرات الموت .. فى أثناء الحمى الأخيرة التى أصابته ..

ـ يقول إننى قتلته .. هذا سخف .. كان لابد أن يصعد أحد إلى (ضهر) السفينة .. إلى متى سنفر من هذه (النملات) اللعينة كلما رأيناها ؟

لم يقل (هولرويد) شيئًا ..

كان يفكر فى هجوم منظم لأشياء سوداء .. فوق سطح سفينة تغمره الشمس ..

ـ كان (هدا) هو مكانه .. مات وهو يؤدى واجبه .. فمم يشكو ؟

لقد جن المسكين .. لم يعد بكامل عقله .. لقد نفخه السم .. هم !

وعاد الصمت الطويل ..

ـ سنحرق (هذا) القارب .. ونغرقه ..

ـ وبعدها ؟

ضايق التساؤل القبطان .. فرفع كتفيه .. ولوح بذراعيه :

ـ (ماذا) يفعل المرء غير (هذا) ؟! (ماذا) بوسعى أن أفعل ؟

كان الغضب قد بدأ يغزو صوته .. وأردف :

ـ على كل حال .. سأحرق كل نملة فى هذه السفينة .. سأحرقها حية !

لم يردّ (هولرويد) .. كان يصغى لصوت القرود على الشاطئ ..

واستعاد القبطان نشاطه وحماسه .. وأزمع أن يحرق الـ (كوبرتا) دون إبطاءٍ .. وعلى الفور تم قطع الحبل الذى يجرها .. وسكبوا (الكيروسين) عليها .. وسرعان ما راحت السفينة تتوهج وتقرقع فى الليل الاستوائى غير المتناهى .. وبدت الأشجار فى صورة (سيلويت) خلف اللهب المتعالى ..

لم يستطع (هولرويد) أن يحب هذا المشهد ..

لكن ماذا كان بوسع القبطان أن يعمل ؟..

ازداد هذا السؤال قوة فى الغد .. حين وصل القارب

إلى (باداما) .. كان المكان ـ فى حرّ الصباح ـ خاليًا من أية علامة على بشر أحياء ، بمنازله المسقوفة .. ومعصرة القصب التى سكنتها الزواحف ..

قال (جيريلّو) :

ـ لقد رحل القوم جميعًا .. لكننا سنفعل شيئًا .. سنصدر جلبة !

بعد هذا غرق القبطان فى أسوأ نوبات التشكك .. وقال للإنجليزى :

ـ ثمة شىء واحد يمكن عمله .. سنصدر جلبة !

وتم تنفيذ أوامره حرفيًا ..

بعدها راح القبطان يمشى على ظهر القارب ، وهو يشير بيديه .. بدا وكأن هناك ما يشغل عقله .. وفتات كلمات على شفتيه .. واستطاع (هولرويد) أن يميز شيئًا ما عن الذخيرة وسط كلامه ..

ثم عاد القبطان إلى الإنجليزية :

ـ وا أيديدى (أو لرويد) .. ماذا عساى فاعلاً ؟

استقلا قاربًا صغيرًا وأخذا معهما منظار الميدان .. واقتربا من المكان ..

كانت هناك أسراب كبيرة ثبتت على وضع واحد كأنما ترقبهم ..

حاول (جيريلو) أن يطلق بعض طلقات دون جدوى .

وسار الرجلان فوق رصيف الميناء .. فوجدا هيكلا بشريًا مدثرًا بثياب حول خصره .. وقد بدت عظامه نظيفة لامعة ..

ساد الصمت هنيهة .. ثم قال (جيريلو) فجأة :

- يجب أن أضع حياة كل هؤلاء فى اعتبارى ..

وأردف .. وقد فهم (هولرويد) أن القبطان يتحدث عن الخليط غير السائغ من الأجناس الذين يشكلون طاقم القارب :

- لو أرسلت حملة للبرّ .. فهذا مستحيل .. كلهم يتسممون .. ينتفخون .. يسبوننى .. ثم يموتون .. مستحيل ..لو رسونا (فسأندل) البرّ وحدى مرتديًا (حداء) (دا) رقبة .. لا أدرى .

وعادا يجدفان ويرمقان الهيكل الأبيض النظيف من زوايا عدة .. ثم عادا إلى القارب .. وراح المحرك البخارى يهدر .. وعند الغروب عاد ليرسو ..

لقد صار تردد (جيريلو) مروعًا ..

كان المساء رطبيًا ونام الجميع على السطح ..

وعند الفجر أيقظ القبطان (هولرويد) .. فصاح هذا فى رعب :

- رباه !.. ماذا حدث ؟

- لقد قررت ..

جلس (هولرويد) وتساءل :

- ماذا ؟.. أن تنزل البر ؟

- كلاً .. لقد قررت ! ولا رجعة فى قرارى ..

قالها القبطان فى تحفظ .. وراح يرددها .. فلم يطق (هولرويد) صبرًا .. وسأله عما ينتويه ..

- سأطلق المدفع الكبير !!

ولقد فعل هذا .....!..

الله وحده يعلم ما جال بفكر النمل وقتها .. لكن الرجل أطلق المدفع مرتين فى احتفالية عظيمة .. وأصاب الطاقم الطنين فى آذانهم ، لكن كان هناك جوّ عام من الإحساس بأنهم يفعلون أخيرًا شيئًا ما ...

هدمت القذائف معصرة القصب أولاً .. ثم هدمت المتجر المهجور وراءها ..

بعد هذا صاح القبطان وقد أدرك سخف فكرته :

- (هدا) لا يصلح .. (هدا) لا يصلح .. يجب أن نعود أدراجنا من أجل التعليمات .. سيوبخوننى كثيرًا على (هده) (الدخيرة) .. كثيرًا .. أنت لا تعرف (هدا) يا (أولرويد) .

وراح يرمق الكون بحيرة لا نهاية لها ..

وفى المساء هبطت مجموعة إلى البرّ ، لتوارى جسد الملازم التراب فى بقعة لم يجدها النمل بعد ....

* * *

منذ ثلاثة أسابيع لا أكثر ، سمعت هذه القصة مجزأة من فم (هولرويد) ذاته ..

كان النمل قد صعد إلى مخّه .. وعاد الرجل إلى (انجلترا) بفكرة (إثارة هلع الناس) قبل (فوات الأوان) ..

قال إن النمل يهدد (غينيا البريطانية) ، وإنه على مكتب المستعمرات أن يتحرك سريعًا ..

ـ هذا النمل ذكى .. فقط فكروا فى معنى هذا !

بالفعل هذا النمل خطر .. ولقد أعلنت الحكومة البرازيلية عن خمسة آلاف جنيه مكافأة لمن يجد طريقة فعالة لاستئصاله .. لقد أحرز النمل انتصارات مروعة ..

لقد احتل كل الشاطئ الجنوبى لنهر (باتيمو) على امتداد ستين ميلاً .. وفرّ الناس من هناك ، واحتل النمل المزروعات وهاجم قاربين على الأقل .. ويقال إنه وصل إلى ذراع (كابورانا) وكاد يبلغ (الأمازون) .

ومن المؤكد أن هذا النمل يتمتع بتنظيم اجتماعى متميز .. وخطره الأساسى يكمن فى استعماله للسم ضد خصومه الأكبر .. ، ويبدو أن هذا السم يماثل سم الثعابين .. وأن الأفراد الأكبر حجمًا يحملون بللورات هذا السم على ظهورهم ..

وللأسف لم يتمكن مراقب لهذا النمل من أن ينجو بعد المقابلة ، إلا فى حالات نادرة كحالة (هولرويد) .

وتثير هذه القصص خيالنا نحن الشماليين .. لأننا لم نعتد شيئًا مثل ما حدث فى (ريودى جانيرو) عام ١٨٤١ ، حين شق النمل نفقًا عرضه كعرض نهر (التيمز) ..

إن عمل النمل حتى الآن يتلخص فى قتل أو طرد كل بشرى فى نطاق سكناه .. ويؤمن (هولرويد) أن النمل سيطرد الإنسان من كل أمريكا الجنوبية الاستوائية ..

وفى عام ١٩١١ ـ أو نحو ذلك ـ إذا استمر بهذا المعدل .. سيصل إلى طريق (كابورانا) الحديدى .. وفى عام ١٩٢٠ سيصل إلى (الأمازون) .. وأعتقد أنه سيكتشف (أوربا) عام ١٩٥٠ أو ١٩٦٠ على الأكثر .

ديسمبر ١٩٠٥


فى مرصد
(آفيو) ..

فى مرصد (آفيو) ..

يقع مرصد (آفيو) فى (بورنيو) عند بروز بالجبل .. وفى الشمال يمتد نطاق الصخور ، باللون الأسود فى الليل أمام زرقة السماء السرمدية ..

ومن المبنى الصغير المستدير الذى تشبه قمته عش الغراب ، تنحدر الجوانب بحدة لتغيب وسط الأحراش الاستوائية تحتها ..

ويعيش مراقب المرصد ومساعده فى منزل صغير ، على بعد خمسين ياردة من المرصد .. بينما وراء هذا تقع أكواخ العمال الوطنين ..

وكان (تادى) - الملاحظ الرئيسى - مصابًا بوعكة بسيطة .. من ثم تولى المساعد (وودهاوس) عملية المراقبة هذه الليلة ..

جلس هذا الأخير صامتًا يتأمل الليل الاستوائى هنيهة.. قبل أن يبدأ سهرته وحيدًا ..

كان الليل ساكنًا تمامًا ..

ومن حين لآخر تدوى أصوات ضحك من أكواخ الوطنين .. أو صرخة حيوان آتية من قلب الغابة الغامض .

علـى حيـن تخـرج حشـرات الليـل مـن الظـلام .. وتتراقص حول الضوء ..

وبالنسبة لعلماء الطبيعة تعتبر أدغال (بورنيـو) معجزة .. ملأى بالأسئلة الغامضة والكشوف الغريبة ..

كان (وودهاوس) يحمل مصباحًا صغيرًا ، ينعكس ضوؤه الأصفر أمام خلفيـة من الأزرق والأسود .. أما حامل المصباح نفسه فقد طلا يديه ووجهه بالدهان ليتقى شر لدغات البعوض ..

وتنهد إذ فكر فيما ينتظره من عناء وجهد عضلى فى أثناء المراقبة ، ثم تمطى ودخل التلسكوب ..

ربمـا كـان القارئ ملمًا بتصميم المرصد الفضـائى العادى .. فالمبنى يكون أسطوانيًا .. لـه قبـة نصـف كروية يمكن إدارتها من الداخل ..

ويوضع التلسكوب فوق صخرة عالية ، ويتم إعداده ليدور مع عقارب الساعة كى يعوض دوران الأرض .. مما يساعد على الحفاظ على رؤية نجوم - مثلاً - فى ذات الموضع دائمًا ..

وهناك عدد من العجلات والمسامير تتيح للراصد أن يحكم ضبطه ..

ويجلس الراصد - أو يرنئد - على سطح خشبى يمكن أن يحركه إلى أى موضع من المرصد .. والإظلام تام بالداخل حتى يزيد تألق النجوم التى ترمقها ...

دخل (وودهاوس) إلى المرصد .. كـان المسـاء يزحف وقد راح يتحول إلى ظلال تملأ المكان ..

أما الفتحة التى سيتم الرصد منها ، فكانت بلون أزرق شفاف ، وقد التمعت ستة نجوم بتألق استوائى صميم فيها .. مرسلة ضوءًا شاحبًا من خلال الأنبوب الأسود للتلسكوب ..

حـرك (وودهـاوس) العجـلات .. فـراح الأنبـوب العملاق يميل ليأخذ وضعه الجديد ..

انتزع سترته لأن الليل كان شديد الحرارة .. ووضـع المقعد غير المريح الذى سيكون عليه أن يجلس فوقه أربع ساعات كاملة ..

لم يكن هناك صوت داخل المرصد ..

وفى الخارج كنت تسمع من حيـن لآخر صرخـة حيوان يتألم ، أو ينادى رفيقته .. بالإضافة إلى أصوات الخدم من قبائل (الداياك) ..

لقد بدأ أحد الرجال ينشد أنشودة عجيبـة ، فكـان الرجال الآخرون يردون عليه بعض المقاطع ..

ثم ساد الصمت .. وبات واضحًا أنهم أخلدوا إلى النوم وازداد الصمت الهامس دقيقة فدقيقة ...

كان (وودهاوس) يصغى للصمت .. وصوت عقارب الساعة المنتظم .. وطنين بعوضة تعبث هنا وهناك باحثة عن دماء تمصها .. ثم انطفأ المصباح وساد الظلام ..

بدّل الرجل موضعه إلى وضع أكثر راحة ، ليتمكن من متابعة التلسكوب فى وضعه الجديد ...

راح يرقب حشدًا من النجوم فى (درب اللبانة) .. فقد لاحظ رئيسه ـ أو ظن أنه لاحظ ـ تنوعًا لونيًا فريدًا ، فى أحد نجوم هذا الحشد ..

ولم يكن هذا العمل أساسيًا فى مهام المرصد .. وربما لهذا مارسه (وودهاوس) فى اهتمام واستمتاع شديدين ..

لقد نسى كل ما هو أرضى .. وتلخص العالم كله بالنسبة له فى دائرة زرقاء كبيرة هى حقل التلسكوب .. انتثرت عليها كالبودرة نجوم لا حصر لها .. كلها تتألق .

تدريجيًا أحس أنه فقد ماديته .. كأنه يحلق فى أجواز الفضاء .. وقد غدا كيانًا أثيريًا ..

فجأة ـ وللمحة ـ اسودّ الكادر .. وتلاشت النجوم .. ثم عادت تتألق .. فقال لنفسه فى حيرة :

ـ غريب !.. ربما كان هذا طائرًا ..

وهنا حدث الشىء من جديد ..

ثم ارتجفت أنبوبة التلسكوب كأنما هناك من ضربها .. ودوّى صوت ضربات تنهال على قبة المرصد ..

وبدت النجوم كأنما تنسحب جانبًا .. لأن التلسكوب ـ الذى لم يكن مثبتًا ـ ابتعد عن فتحة الرصد فى السقف .

صاح (وودهاوس) فى هلع :

ـ رباه !.. ماذا حدث ؟

بدا له أن جسمًا أسود عملاقًا .. له شىء يرفرف كجناح ، بدا له يحاول التملص من فتحة المرصد ..

وفى اللحظة التالية عاد (وودهاوس) يبصر الفتحة .. وبدت له من جديد نجوم درب اللبانة .. لامعة متألقة ..

وداخل المرصد كان الظلام دامسًا ..

فقط صوت حفيف بالداخل يعلن وجود ذلك المخلوق المجهول ..

تدحرج (وودهاوس) من المقعد ليقف على قدميه ..

كان يرتجف بشدة .. وقد غمره العرق إثر هذا الحدث المفاجئ ..

هل الشيء - أيًا ما كان - بالداخل أم بالخارج الآن ؟

وهنا تأرجح التلسكوب .. فوثب (وودهاوس) واقفًا .. ومدّ ذراعه لأعلى ..

إن الشيء بداخل المرصد إذن .. معه ..

ومن الواضح أنه يتعلق بالسقف .. ما هو ؟.. هل يراه الآن ؟

إن الوحش - أيًا ما كان - يتعلق بداخل القبة .. ثم أحس بشيء يرفرف جوار رأسه ، ورأى ضوء النجوم يلتمع للحظة فوق بشرة كأنما هى جلد مدهون بالزيت .

وسقطت زجاجة الماء من فوق المنضدة وتهشمت ..

لم يكن الإحساس بوجود طائر يحوم على بعد ياردات من وجهه فى الظلام سارًا بأى شكل بالنسبة لـ (وودهاوس) .. وخطر له أن هذا ربما كان طائرًا ليليًا أو وطواطًا ..

على كل حال .. فلير ما هنالك .. جذب عود ثقاب من حافظته ، وحاول أن يحكه فى المقعد ..

تألق لهب فوسفورى للحظة .. وتألق عود الثقاب .. ورأى جناحًا عريضًا يطير نحوه .. نوعًا من الفراء

البنى الرمادى .. ثم شعر بضربة فى وجهه .. وسقط عود الثقاب من يده ..

ثمة مخلب مزق خده .. فسقط أرضًا وسمع المصباح يتهشم .. وشعر بدمه الحارّ يجرى على وجهه ..

غريزيًا شعر بأن عينيه مستهدفتان ، فأدار وجهه بعيدًا .. وحاول أن يزحف ليكون محتميًا بالتلسكوب ....

ضربة أخرى فى ظهره .. وسمع سترته تتمزق ..

ثم ضرب الشيء سقف المرصد ..

دفن (وودهاوس) جسده قدر الإمكان بين عدسة المرصد والمقعد الخشبى .. وكوّر نفسه بحيث لم يبق مكشوفًا سوى قدميه .. على الأقل كى يركل بهما ..

تعلق الشيء الغامض بالتلسكوب .. وجعله يتأرجح .

بعد هذا رفرف بقربه .. فركله (وودهاوس) بقدمه .. وشعر بها تصطدم بجسم طرى ..

أصابه الذعر إلى حدّ مروع ..

لابد أن الشيء ضخم كى يؤرجح التلسكوب هكذا ..

وفى ضوء النجوم رأى حدود رأس عملاق له أذنان حادتان منتصبتان ..

من ثم راح يصرخ بأعلى صوت عنده طالبًا الغوث .

وهنا هبط الشىء نحوه .. ركله (وودهاوس) .. فأحس بكاحله محشورًا بين صف من الأسنان الحادة ..

عاد يصرخ .. وراح يركل بالقدم الأخرى .. وهنا تذكر أن زجاجة الماء المكسورة توجد جواره .. فانتزعها .. وتحسس فى الظلام قرب كاحله حتى وجد أذنًا يكسوها الفراء كأذن قط عملاق ..

أمسك بالزجاجة وهوى بها فوق رأس الوحش الغريب، وكرر الضرب .. وطعن بالطرف المدبب فى الظلام حيث قدر أن الوجه هناك ..

عندئذ أطلقت الأنياب سراح كاحله .. استجمع قواه وركل بعنف .. وأحس بالعظام تتهشم تحت كعب حذائه .. ثمة عضه فى ذراعه .. لكنه واصل الركل ..

وساد الصمت .. ثم سمع صوت مخالب .. وجسد ثقيل ينسحب فوق أرضية المرصد .. وعاد الصمت من جديد .

لا صوت سوى أنفاسه .. وصوت يشبه اللعق ..

راح ينتظر فى الظلام .. حتى بدا له الانتظار بلا نهاية ..

بحث فى جيبه عن أعواد ثقاب ، فوجد واحدًا .. حاول أن يشعله ، لكن الأرض كانت مبتلة تمامًا ..

أطلق سبّة .. فهو لم يكن يذكر موضع الباب ..

يبدو أن الشىء عاد يتحرك نحوه ، وقد سمع صوت الثقاب .. فصرخ (وودهاوس) :

ـ أريد وقتًا !

لكن الشىء لم يعاود الهجوم .. لابد أن الزجاجة المكسورة آذته كثيرًا .. كان الألم يمزق كاحله .. وتساءل عما إذا كانت ساقه ستتحمل الوقوف ..

لا صوت فى الظلام لأى شىء يتحرك .. إن الحمقى النائمين لم يسمعوا رفرفة الأجنحة ولا صرخاته .. لا داعى إذن لمزيد من الصراخ فقد يفقد قواه ..

وهنا رأى ضوء النجوم الظاهر من فتحة المرصد يخبو ويتألق .. هل هو موشك على فقدان الوعى ؟ ليس هذا من الحكمة ..

ضغط على قبضتيه وأسنانه ليتماسك .

إن النجوم الظاهرة هى من مجموعة (ساجيتاريوس) فى الجنوب الشرقى .. والباب فى الشمال .. أم هو فى الشمال الغربى ؟!

لو استطاع أن يصل إليه لفرّ من المكان .. إنه ليشعر بتوتر وحشى ..

وهنا رأى الشىء يتحرك .. رآه يعتم ضوء النجوم .
هل هذا تراجع ؟
المخيف أنه لا يشعر بقلق .. إنه ظمآن .. لكنه لا يرغب فى البحث عن ماء .. لحظة فلحظة ينزلق عبر قمع طويل .. مظلم ..
أخيرًا شعر بحرقة فى حلقه ..
عندئذ أدرك أن هذا هو النهار ..
وأدرك أن أحد الخدم من قبيلة (الداياك) يرمقه فى دهشة .. ثم رأى وجه (تادى) المقلوب ..
إنسان غريب هو (تادى) كى يمشى بوجه مقلوب كهذا !
ثم بدأ يفهم الموقف ..
إن رأسه ممدد على ركبة (تادى) ، بينما هذا الأخير يقدم له البراندى .. ثم رأى عدسة التلسكوب وعليها بقع حمراء .. فتذكر كل شىء ..
قال (تادى) :
ـ لقد ملأت المرصد بالفوضى ..!
كان (الداياك) يخفق بيضة فى (البراندى) .. ثم ناوله لـ (وودهاوس) .. شربه .. ثم جلس شاعرًا بألم حاد .. كان كاحله مربوطًا وكذا ذراعه ونصف وجهه ..

أما الزجاج المحطم الملوث بالدم فتناثر على الأرض .. وقد انقلب مقعد التلسكوب .. وانفتح الباب .. ومن خلاله رأى قمة الجبل ..
قال (وودهاوس) :
ـ باه !.. من الذى كان يذبح الأغنام هنا ؟.. أخرجنى من هذا المكان !
ثم تذكر معركته مع الشىء .. فسأل (تادى) :
ـ ماذا كان ذلك ؟
ـ أنت خير من يعلم .. على كل حال لا تقلق ..
قال(وودهاوس) :
ـ كان الشىء أقرب إلى وطواط عملاق منه إلى أى شىء فى العالم .. له أذنان مدببتان وفراء ناعم وجناحان جلديان .. أسنانه دقيقة لكنها حادة شيطانية ..
قال (تادى) :
ـ كادت هذه الأسنان تقطع كاحلك ..
ـ كان يضربنى بمخالبه بسلاسة .. وهذا كل ما أستطيع قوله عنه .. كان حوارى معه حميمًا لكنه خال من الود .
ـ يتحدث (الداياك) عن وحش يدعى الـ (كولوجو) الكبير ـ أيًا كان هذا ـ لا يهاجم الناس عادة .. لكنك

فيما يبدو أثرت أعصابه .. هناك (كولوجو) كبير .. و(كولوجو) صغير .. وكلاهما يطير ليلاً ..، أنا أعرف أن هناك سناجب طائرة وثعالب طائرة هنا .. لكنها ليست ضخمة الحجم كما تصف وحشك هذا ..

قال (وودهاوس) .. ووافقه (تادى) على كلامه :

ـ ثمة أشياء فى الأرض والسماء وغابات (بورنيو) أكثر من كل ما حلم به فلاسفتنا .. وعلى كل حال .. إذا كانت عجائب (بورنيو) تنوى أن تطلعنى على أسرارها ؛ فليكن ذلك فى وقت لا أكون فيه داخل المرصد .. وحيدًا فى الظلام ...!

٩ أغسطس ١٨٩٤ .

* * *



انتصارات دبّاغ

ها هنا نقدم لكم بعض أسرار دباغة الجلود .. حكاها لى دبّاغ فى حالة انبساط ..

حكاها لى فى تلك الفترة ما بين الكأس الأولى من (الويسكى) والكأس الرابعة .. حين يتخلى عن المرء حذره وبرغم هذا لا يكون قد ثمل بعد ..

جالسين فى صومعته .. التى هى كذلك مكتبته وغرفة جلوسه وغرفة طعامه ، تفصلنا ستارة من خرز عن المكان الذى يمارس فيه مهنته ..

كان يريح حذاءه فوق رف المدفأة .. وقد لفّ قدميه فى شىء يشبه الحذاء ، اصطنعه من سجادة قديمة ..

أما عن سرواله - بالمناسبة برغم أنه لا دخل له فى انتصاراته - فكان شيئًا عتيقًا يعود إلى زمن أجدادنا ..

أما شعره فكان أسود .. ووجهه ورديًا .. وعيناه بنيتين .. ومعطفه مصنوعًا أساسًا من الشحم مع لمسة من الفراء ..

أما عويناته فكانت منحرفة .. عينه اليمنى تبدو وراء الزجاج مكبرة مظللة .. أما عينه اليسرى فتحدق فيك مباشرة .. صغيرة .. تخترقك بحدة ....

قال لى :

لم يوجد قط رجل يجيد فن (التصبير) مثلى .. لقد (صبّرت) أفيالاً .. وصبرت الديدان .. ولقد بدت جميعها أكثر حياة وأجمل مما كانت عليه ..

بل إننى صبّرت البشر .. وذات مرة صبّرت زنجيًا .!

كلا .. لا يوجد قانون يمنع هذا .. لقد صبّرته بحيث تمتد أصابعه مفرودة ، واستعملته كحامل للقبعات .. لكن ذلك الأحمق (هو ميرسبى) تشاجر معه ذات ليلة .. وأتلفه ..

كان هذا قبل أن تولد أنت .. إن الحصول على الجلود عسير ولولا هذا لصنعت لنفسى واحدًا آخر ..

غير سار ؟ لا أرى ذلك .. أحيانًا أرى أن الدباغة هى طريقة واعدة بالإضافة إلى أسلوبىْ الدفن والحرق .

يمكنك أن تحتفظ بأحبائك جوارك مبعثرين فى أرجاء دارك .. سيجعل هذا منزلك عامرًا مسليًا .. بل ويمكنك أن تزودهم بمحركات ليقوموا بعمل ما تريد ..

بالطبع يحتاجون إلى تلميع بالورنيش .. لكنهم لن يحتاجوا إلى أكثر مما يحتاجه الناس الأحياء فى العادة .

يمكنك أن تثرثر معهم دون مقاطعة .. وحتى الخالات ..

صدقنى .. إن مستقبلاً عظيمًا ينتظر فن الدباغة .

وهنا عاد الصمت ..

ثم إنه امتص غليونه شاردًا :

ـ ثم هناك الحفائر .. لا .. لا أظن أنه علىّ أن أخبرك بهذا .. لا .. شكرًا .. لا تضف الكثير من الماء .

بالتأكيد ما سأقوله لك هو سرّ بيننا .. هل تعرف أننى صنعت بعض البجع العملاق وطائر (دودو) ؟.. لا ؟.. واضح أنك مجرد هاو فى فن الدباغة .. يا عزيزى .. إن نصف البجع العملاق فى العالم لا يزيد أصالةً على ذلك المنديل الذى زعموا أنه يخص القديسة (فيرونيكا) .. نحن نصنع هذا البجع من الريش وحتى بيض هذا البجع نصنعه ..

ـ يا للسماء !

ـ نعم .. نصنع البيض من الخزف الرقيق .. إن للبيض ثمنه .. لقد بلغ ثمن إحداها ثلاثمائة جنيه استرلينى .. إن تزييف البيض لعمل متقن .. ثم يكون عليك أن تكسوها بالغبار .. ولا أحد من مالكى هذا البيض يجرؤ على تنظيفه .. وهذا هو الجميل فى الموضوع .. إذا هم شكوا فى بيضة لا يجرءون على فحصها بدقة .. إنها لشىء هش للغاية ..

أنت لم تعرف قط أننا وصلنا إلى هذا التقدم .. بل قد وصلنا إلى ما هو أكثر .. لقد تحديت الطبيعة ذاتها يا بنى .. لقد قمت بابتكار واحدة من البجع الأصيل المنقرض ..

لو أنك درست علم الطيور لعرفت روعة ما قمت به .

وليس هذا هو كل شىء .. أتراك سمعت عن الـ (دينورنيس) ..؟ إنه واحد من تلك الطيور العملاقة التى انقرضت من (نيوزيلاندا) .. واسمهِ الشائع هو (موا) .. لا يوجد (موا) الآن .. أترى ؟.. حسن .. كان لديهم بعض من عظامه وبعض الريش وبعض أجزاء جافة من جلده .. وجدوها فى أحد المستنقعات ..

فى هذه المرة لم أحتج إلى عظام .. قمت بتزييف (موا) كامل كأنما تم تصبيره .. أعرف شابًا يزعم أنه وجدها فى مستنقع مضاد للتعفن .. ويقول إنه صبّره فى الحال قبل أن يتحول إلى فتات ..

إن الريش مشكلة .. لكننى استعمل ريش البجع بعد أن أغير منظره .. نعم .. ذلك هو سرّ الرائحة التى تشمها ..

ستكتشف الخدعة فقط لو استعملت مجهرًا .. لكن

أحدًا لا يجرؤ على جذب ريشةً واحدة من هذه العينات الممتازة مخاطرًا بإتلافها ..

وهكذا - ترى - أعطى دفعتى الخاصة فى تقدم العلم .

لكن كل هذه نماذج لمحاولتى تقليد الطبيعة .. لقد فعلت أكثر من هذا فى شبابى ..

وأنزل قدميه من على حاجز المدفأة .. وانحنى بثقة نحوى :

- لقد صنعت طيورًا جديدة !.. لا تشبه أى طائر فى العالم ..

وعاد إلى وضعه السابق قائلاً :

- أنا أزيد الكون ثراء .. بعض الطيور التى لفقتها كانت طيورًا مغردة جميلة .. وبعضها كان عملاقًا ، إن أضخم طائر لفقته هو طائر الـ (أنومالوتركس جيجونا) .. (جيجونس) باللاتينية معناها (فارغ) .. وقد سميته كذا لأنه كان بالفعل مفرغًا من الداخل .. مجرد قشرة .. إن (جافرس) العجوز يملك الشىء الآن .. وهو فخور به مثلما أنا فخور به .. إنه لتحفة يا (بيلوز) .. فيه كل غباء البجعة .. وكبرياء الببغاء

المتفرد .. وصراع الألوان السخى فى الطاووس .. ياله من طائر !.. صنعته من هياكل (لقلق) و (طوقان) مع كثير من الريش ..

إن الدباغة تصير متعة حقيقية جديرة بفنان ....

كيف وصلت إلى هذا ؟.. ببساطة مثل كل الاختراعات العظمى .. كان هناك عالم شاب معدوم الخبرة ، كتب ترجمة عن طيور (نيوزيلندا) فى مجلة علمية .. ترجمها عن الألمانية مستعملاً قاموسًا وذكاءه الفطرى الذى ورثه بالتأكيد عن أمه ..

ذكر فى مقاله هذا شيئًا عن طائر ارتفاعه خمسة أقدام .. يعيش فى الأحراش .. خجول .. نادر .. يصعب الحصول على عينة منه .. إلخ ..

وكان أن قرأ (جافرس) العجوز هذا المقال .. إن (جافرس) كجامع للعينات العلمية هو رجل جاهل إلى حد معجز .. وأقسم إنه سيحصل على هذا الطائر .. وراح يطالب الموردّين بأن يجلبوه له ...

هذه هى فائدة الإصرار .. هو ذا رجل يرغب فى الحصول على طائر لا وجود له .. ولم يوجد قط .. ولن يوجد أبدًا لو تركنا له حرية الاختيار ..

أصرّ هذا الرجل على الحصول على الطائر .. وقد حصل عليه ..!

هل لك فى مزيد من (الويسكى) يا (بيلوز) ؟..

ثم راح الدباغ يحكى لى كيف صنع عروس بحر فاتنة .. وكيف أن واعظًا لم يجد مستمعين لمواعظه بسببها ؛ هشمها فوق مرتفعات (بورسلم) لأنها نوع من الأصنام .. لكن هذا الحادث سرّ لا يجوز نشره ..

ولما كان القارئ غير ملم غالبًا بالأساليب التى يتبعها جامعو العينات العلمية ؛ فقد يتشكك فيما قاله هذا الدبّاغ ..

إلا أننى أعرف أن بعض علماء الطيور المتميزين قد وافقوا على هذه العينات .. وقد ظهر مقال عن طائر (نيوزيلندا) فى جريدة صباحية ذات سمعة لا غبار عليها ..

فقد كان الدبّاغ يحتفظ بنسخة منها .. وقد جعلنى أراها لأتأكد من كلامه .

١٨٩٤

* * *

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

الغرفة الحمراء

16

ها هو ذا (هـ . ج . ويلز) يأخذنا معه فى رحلة عبر شطآن الخيال الإنسانى المترامية .. نفرّ من رأس مقطوع لأكل لحم بشر .. لنواجه النمل المفترس على ضفاف نهر (الأمازون) .. ونواجه وحشًا غامضًا فى الظلام داخل مرصد .. لنجد أنفسنا وقد دخلنا - بكامل إرادتنا - إلى ...... الغرفة الحمراء !

الثمن فى مصر ١٥٠ قرشًا
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
وادى العناكب


مطابع